

المبهم في
الحكمة



حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية
سلطنة عمان

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أو الإلكترونية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو سواء وحفظ المعلومات واسترجاعها - إلا بإذن خطي من الناشر.



الهدية في الحكمة

الدكتور محمد الشيخ

تقديم

ما كتب علماؤنا كتباً نظريةً في المعرفة وأداب العلم. وإنما يقدّمون لموسوعاتهم الفقهية بفصولٍ في مسائل العلم والفقه، وأصول النظر، وأداب التعلّم، وما يقع بين علوم القرآن وأصول الفقه والقواعد الفقهية.

ولذلك فإنّ مَنْ يريد معرفة شيءٍ عن أصول النظر، وتقاليد العلم في الجماعة؛ فإنه يكون عليه أن يبحث عن ذلك في كتب التراجم، أو في بعض كتب الزهد والعمل الصالح. وفي الواقع فإنّ الكتب من النوعين، وبخاصة كتب التراجم، تعرض نماذج رائعةً وحيّةً لسلوك العلماء وطرائقهم في التفكير والتصرف.

لقد اختصّت «جماعة المسلمين» منذ قيامها في القرن الهجري الأول بتخصيص أناسٍ للتعلّم والمتابعة العلمية. فصار «حملة العلم» خلال عقودٍ قليلةٍ فئة نشأت على وقع قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إنّ ما قام به الدكتور محمد الشيخ في هذا الجزء، هو أنه ألّف في انتظام مسائل القول والعمل في السيرة المستمرة لحملة العلم وأهله منذ القرون الأولى وإلى الأزمنة الحديثة. وقد جمع أخبار وسير أهل العلم تحت فصول: كتاب المعرفة، المعني بتتبّع آثار العلماء وسيرهم في اكتساب العلم، وفي التدريس، وفي نقل المعرفة عبر الأجيال. وكتاب «لا». وهو معنيّ في هذا الفصل بنماذج استقلال العلماء بمعرفتهم وفكرهم وسيرتهم تجاه السلطتين السياسية والاجتماعية. وكتاب البساطة الطوعية أو كتاب الورع. وقد جمع فيه أمثلةً لزهد العلم وتواضعهم وورعهم مع تلامذتهم ومع أهل بيوتهم ومع مجتمعاتهم. وقد اعتبروا تلك السيرة عملاً صالحاً مقرباً منه عزّ وجل. وكتاب إيثار التواضع وحب الخمول، وفي هذا

الفصل شيءٌ من الفصل السابق، لكنّ فيه تركيزاً على خصلة الابتعاد عن الرياء وحب الشهرة. وكتاب الجود والسخاء، وهو يدرس فيه سلوك أهل العلم المتفصّل والراقي، وسواء أكانوا أغنياء أم فقراء. وكتاب الأئم، وفيه نماذج لصبر العلماء على الأدواء وعُسْر الزمان وضغوط السلطات. ثم يأتي كتاب المرأة، وفيه إشادةٌ بدورها عند الإباضية، ونقدٌ لغيابها الكبير في الميراث العلمي والاجتماعي. وكتاب الحكّم ومحاسن الكلم، وفيه عباراتٌ وقصصٌ، يذهب مذهب المثل في وعي العلماء، وفي تحويلهم نماذج للاقتداء. ويختم الكاتب كتابه بفصلٍ بعنوان: كتاب آداب معاملة الغير.

هذا المجموعُ في السيرة، هو مجموعٌ أيضاً في النقد الذاتي إذا صحَّ التعبير. فالكاتب لا يكتفي بالجمع والتصنيف، بل يتدخل دوماً ناقداً أو مثبياً ومورداً أحياناً نصوصاً من خارج الميراث العلمي الإباضي، للتدليل على وجهة نظره، وللإغناء بالمقارنة. ومن هذا القبيل نقده للثقافة الفقهية التي طغت في أوساط الإباضية المتأخرين، شأنهم في ذلك شأن المذاهب الفقهية الأخرى. وأنا أرى أنّ تلك الثقافة كانت تعبيراً عن حاجاتٍ اجتماعية، وقد تستحق الثناء وليس النقد.

لقد مضت عقودٌ ما ظهر فيها كتابٌ في أخلاقيات العلم من خلال أخلاقيات أهله. ولذلك فإنني أرحّبُ بهذا التصنيف، وأشكر على الجهد المبذول الرائع.

وبالله التوفيق

عبدالله بن محمد بن عبد الله السالمي
وزير الأوقاف والشؤون الدينية





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فإن بعض الحكماء الكرم والملوك فلم يقنصوا على مكافأة



من استدلوا به الحميد حتى يكون منتهى القضاء ^{ما وجد}



على الأجر في زمانه لا يستحقون لهم ويكون مكانهم دناءة عليه

تتمة



توطئة

«كم من عالمٍ مشهور من علمائنا لا نعرف تاريخ مولده ولا وفاته، بل ولا عن شيوخه وتلامذته وحياته، اللهم إلا النزر اليسير الذي لا يروي غلّة، ولا يشفي علة».

الشيخ سيف بن حمود بن حامد البطاشي

كفى بفقدهم هجراً لذكرهم كأن من كان منهم لم يكن كانا
عمران بن حطان

«لعل الناظر في كتابنا هذا يرى تعسفاً كثيراً من أهل زماننا على سير الأوائل وخير الأفاضل».

«وقد قصدنا في هذا الكتاب إلى إيضاح ما انتهى إلينا من سيرِ أوائنا وأسلافنا، من أدركنا منهم، وما بلغنا عن من لم ندركه، من المناقب الكريمة، والمراتب الشريفة، والمنتخب من الفعل، والمنتحل من القول».

أبو الربيع سليمان الوسياني

«قال الشيخ أبو الربيع لما مات الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر: قلت للمشايع: «اقتفوا بنا آثاره ما دامت جديدة غير مندرسة، فقالوا: المهمل والسياسة، حتى عفى الأثر ودرست السير».

من سير الوسياني

كنتُ منذ مدة أَلْفْتُ كتاباً في الحكمة العربية (2008)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت)، جمعتُ فيه أشتاتاً من الحكمة العربية منبثة في مثالي ومطاوي وتضاعيف كتب التراث العربي، دارت على نظر الفكر العربي القديم - كلاماً وفلسفةً وتصوفاً - في مواضيع شأن «الإنسان» و«الغير» و«الصدقة» و«الحواس» و«الكتابة» و«القراءة» و«الشهرة» و«الموت»... ثم ما نشب أن تبيّن لي بعد نشر الكتاب أمران:

أولهما أن المظان [المصادر] التي عدتُ إليها، على تنوعها وثرائها، لم تكن لتستوفِ تراثاً ضخماً عده أحد أبرز من تخصصوا في استقصاء مخطوطاته وتتبع أماكنها في المكتبات العالمية المتعددة والمتفرقة عبر أقطار العالم العربي والغربي - فؤاد سوزكين - ببضعة مليون مخطوطة؛ وذلك بما يجعل المخطوطات العربية تبرز مخطوطات اليونان والرومان وسائر الحضارات الشرقية عدداً وحجماً، الاستيفاء الأدق. ولذلك بقيت بعض المظان في غير متناول اطلاعي.

ثانياً - وهذا الأمر ذو صلة بالأول - مهما حاولت تنويع مصادري في اقتناص فوائد الحكم من بطون أمهات الكتب، ومهما حاولت تعديد هذه المصادر وتكثير مؤلفيها من دولة الخلافة الإسلامية ببغداد، ودول الشام، ومختلف ممالك مصر، ودولة الأندلس، ومختلف إمبراطوريات شمال إفريقيا، ودول فارس... فإن بعض تراث من إمامات عُمان وبعض دول جنوب الجزائر (الدولة الرستمية مثلاً) وجبل نفوسة بليبيا وجربة بتونس... أي تراث العديد من المذاهب الكلامية والفقهية ظل لهذه الأمة - الأمة التي عُدَّ فيها الإختلاف رحمة - في غير متناولي...

ولهذه الحيثية، عقدت العزم على أن أصِل ما أَلَفْتُ بضمائم عن حكمة باقي الشعوب العربية الإسلامية في تراثنا الإسلامي الجامع الموحد، وما أثاره! وما أغناه! وما أنفسه! وما أنذا أفتتح هذه الإضافات والإثراءات بتخصيص كتاب للحكمة في البلاد التي حكمتها مذاهب متنوعة مختلفة.

يشاع عادةً بنوع من الإشاعة التي سرعان ما يتبيّن خطؤها أن التراث الإسلامي لهذه الشعوب التي ذكرتها تغلب عليه الفقهيات. وتساق على ذلك الشهادات: «إن علماءنا (رحمهم الله) كان أكثر اهتمامهم بالتأليف في الفقه والأصول والولاية والبراءة، فألّفوا في ذلك الجوامع الكبار، والكتب المطولة يكاد بعضها أن يكون موسوعة...»⁽¹⁾. وذلك بما يفهم منه - عن تسرع - أنهم

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1431هـ/2010م، ص 15 - 16.

الأمة التي عُدَّ فيها
الاختلاف رحمة

ما أَلَّفوا في الحكمة أو الفلسفة أو الأخلاق شيئاً يذكر، وإنما غلبت على تأليفهم الفقهيات. ولا كما يشاع...

«فإنهم لا يعدون الشتم ديناً»

الإمام نور الدين السالمي: تحفة الأعيان

تجد المحققين ممن ينشدون وحدة الأمة الإسلامية لا يحفلون بالتصنيفات الضيقة، وما قاله أحد الشعراء العرب القدامى المفلقين لما عيب عليه عدم التزامه في بعض قصائده بالعروض، فقال: «أنا أعلى من العروض!»، يمكن أن ينطبق على حال الكثير من العلماء، فأنت تجد العديد من المصلحين الدينيين الحديثين في مختلف الأقطار العربية الإسلامية، كأني بهم يقول لسان حالهم: «نحن أعلى من ضيق الحدود المذهبية التي يراد أن ترسم لنا». فهذا الشيخ نور الدين السالمي ردَّ على رسالة شهيرة وجهها إليه الشيخ سليمان الباروني يسأله فيها عن أسباب افتراق المسلمين، وهل في الإمكان توحيد مذاهبهم؟ فردَّ عليه بالقول: «ليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغياً، ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيباً، ونعرف الرجال بالحق. وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق، وأما الدين فهو عندنا لم يتغير».

وبالتطبيق، كان العلامة نور الدين السالمي إذا رأى رأياً هو الصواب، اختاره بغض النظر عن قال به أكان على مذهبه أم على غير مذهبه، وكان لا يرى غضاضة في ردِّ قول اختاره بعض أهل مذهبه. بما دلَّ على أن الإمام في كثير من مواقفه كان منصفاً لغيره، غير محاب لأهله، همَّه حيث كان الحق.

وإننا لنجد الكثير من الحكايات الحكمية المنصفة للمخالف في المذهب والتي كانت ترى أن الحق لا يختلف باختلاف الناس في مذاهبهم. والقاعدة التي أصل لها العلماء منهم أنه: «لا يفرح لموت عالم إلا جاهل، ولو أنه مخالف»⁽¹⁾.

ولا تحسبن أنهم انفلقوا على أنفسهم، فلا يرون إلا مذاهبهم مذهباً، وما اتخذوا مذاهبهم ديناً [بالمعنى الذي نجده عند فيلسوفهم الوارجلاني والجيطالي] يتدينون به، وإنما انفتحوا على علمي المناظرة والجدل وعلى علم الكلام، وناظروا وجادلوا مخالفينهم، وكان موجههم في ذلك القاعدة التي وضعها لهم أبو زكرياء فيصل بن أبي مسور [يسج بن يوجين البهراسني] (ت بين 420 - 440هـ/1029 - 1048م)،

(1) الوسياني، السَّير، الجزء الأول، ص 282.

«ليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغياً، ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيباً، ونعرف الرجال بالحق. وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق، وأما الدين فهو عندنا لم يتغير».

الإمام نور الدين السالمي

وهو من علماء جربة في تونس، ومن مواليد جبل نفوسة بليبيا، والتي تقول القول الحكمي العظيم: «لا يكون المرء فقيهاً وعالماً بدينه حتى يكون عالماً بدين غيره»⁽¹⁾. وكان أبو عيسى بن مجبر الوسياني قد قال: «لا يعرف دينه من لم يفرزه من المذاهب كما يفرز بيته في ليلة ذات ظلمة وريح ورشاش من البيوت»⁽²⁾.

وما اقتصر اهتمامهم بالمعرفة على جانب النظر وحده - والذي طغى عليه، لا شك في ذلك الفقه - لكنهم أيضاً اهتموا بجانب العمل، الذي اعتبره مقابل جانب الحق (الفقه) جانب الخير (المعاملة).

وقد حكى أبو الربيع قال: «قال أبو عبد الله: طلعتنا من قسطالية متوجهين إلى إفريقية (تونس)، حتى وصلنا إلى موضع يسمى «سلامليك»، وهو موضع معروف إلى اليوم، قال: ما وجدنا في وجهنا ذلك، على حي ولا منزل، إلا وجدنا من يُستفاد منه خيراً وعلماً»⁽³⁾.

ولا يصحُّ أن كل ما كتبه هؤلاء فقه في فقه، أو فقه عن فقه، أو فقه لفقه، بل كان فيهم من تكلم عن الأخلاق المهذبة، والأدب البارع، والورع الكامل، والسخاء الشامل، والرفق والمودة، والعلم والفقه، والنيات الخالصة، والثبات والفهم، والرغبة في الخيرات، والخوف والوجل، والخشية والخشوع الدائم...⁽⁴⁾ شيوخ ما أكثرهم لو تمَّ اعتبارهم!

يكفي أن نذكر ما رواه أبو الربيع من أنه اجتمع في منطقة تيجديت وحدها خلق كثير من أهل الفضل والعدل والخير والحبر والعلم والزهد والعبادة والأدب والورع والسيادة ما لم يجتمع في سائرهما من بلدان أهل الدعوة..⁽⁵⁾

وقد ركَّز كثير من شيوخهم على الأمور الحكمية الخلقية وشددوا عليها. ودعا الكثير منهم إلى إحياء السير بالبدل من إماتة السير. هذا الشيخ أبو محمد عبد الله بن مانوح اللماثي الهواري (من علماء جربة الطبقة التاسعة 400 - 450هـ/1009 - 1058م)، كان يقول: «لا أسأل العزاب إلا على ما بينهم [المعاملات الخلقية]، أما العلم [الفقه] فقد فاتهم، وإذا كانوا ينظرون في أمورهم

السَّيرُ مظنة الحكمة
وموردها في حياة
طلبة العلم ومنشديه

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 301.

(2) الوسياني، السَّير، الجزء الثاني، ص 610.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 830.

(4) الوسياني، السَّير، الجزء الأول، ص 301.

(5) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 645.

وحدواتهم، ويتفقدون شؤونهم، ويتذاكرون السّير والآداب وأشار الصالحين يوم الإثنين ويوم الخميس، تمّ عزمهم واجتهادهم، وأرجو لهم أن ينفعوا وينتفعوا». ونظر يوماً إلى حلقة عزاب جازوا [مروا] عليه، فنظر إلى أكبرهم سنّاً، وقال له: «علمهم السّير قد أدركت ما لم يدركوا، ورأيت من لم يروا... وذلك من شدة رغبته في إحياء العلم والسّير»⁽¹⁾.

ولهذه الحيثية، ما كان فيهم أهل الفقه وحدهم، وإنما وجد منهم أهل الحكمة والطب والأدب والعلم وغيرهم كثير.

وأعلاهم كعباً وفاتحة هؤلاء الحكماء الحكيم أبو محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري (ابن الذهبي)، صاحب «كتاب الماء»، الذي ذكره ابن أبي أصيبعة، صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، فقال: «هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأزدي، ويعرف بابن الذهبي، أحد المعتمدين بصناعة الطب، ومطالعة كتب الفلاسفة، وكان كلفا بصناعة الكيمياء، مجتهدا في طلبها. وتوفي ببلنسية في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة. ولابن الذهبي من الكتب مقالة في أن الماء لا يغذو»⁽²⁾. ولعله قد يكون هو «العُماني الطبيب» الذي ذكره ظهير الدين البيهقي في كتابه الشهير «تاريخ حكماء الإسلام» - المسمى أيضاً «تتمة صوان الحكمة» - وقال عنه: «كان أبو الخير أثنى على العُماني وقال: هو أقوى أهل الزمان في صناعته [يعني صناعة الطب]. ومن كلماته قوله: «حق على المرء أن يوكل معه كالتين أحدهما يكلؤه من أمامه والآخر من ورائه، وهما عقله وأخوه الناصح». «ما ينفعك في ذاتك فاطلبه، وإن لم يكن فيه افتخار، وما يضرك في الدنيا والآخرة فاتركه وإن كان به افتخار». «من استبد بمعالجته في حال مرضه وإن كان طبيباً حاذقاً فقد يعرض للخطأ بجهد الاستشارة أداة كاملة»⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الرجل الذي كان تلميذ تصانيف الخليل بن أحمد الفراهيدي - بلديّه [ابن بلده] - والذي تتلمذ تلمذة مباشرة على يد دهاقنة الصيدلة والطب في زمنه - البيروني وابن سينا - يضاف إليهما أحد كبار الأطباء أبو الحسن الحرالي - والذي توفي 365 للهجرة بما دل على أن صاحبنا ترك بلده

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 321.

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، الجزء الثالث، ص 80.

(3) ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية،

الطبعة الأولى، القاهرة، 1996، ص 91.

هكذا تكون همّة

فيلسوف عُمان

وطبيها:

«وقد عولت في هذا

الكتاب على ما

اختبرته بنفسي، وما

أفاضه عليّ الشيوخ

الأطباء الكبار؛ فأولهم

استحقاقاً للتبويه

الشيخ العلامة ابن

سينا، فله على كل

كلمة هاهنا، عارفة

وعلى كل علم نؤنّيه

طارفة. فمنه أخذت

معظم أبواب الطب.

وعن أبي عبد الرحمن

الخليل بن أحمد

أفدت تعريب ما كنتُ

أصّلت من أسماء

ومسميات. فإليهما

فضل ما في الكتاب

من طب نافع،

ومعنى شافع...»

بغاية التلمذ صغيراً إذ هو من وفيات 456 وأنه عمّر طويلاً. ففي باب الجراد يقول: «وحدثني أبو الحسن الحراني رحمه الله...»⁽¹⁾.

ويبدو أن له مقالة غير المدخل الذي خصه للماء في معجمه الطبي - كتاب الماء - سماها: «وعلاج كل أوام (العطش والدوار الذي يصيب الرأس) الماء شرباً وتبريداً. وفصلنا الكلام عليه في مقالة أن الماء لا يغذو»⁽²⁾.

يقول في مقدمة الكتاب:

«وقد عولت في هذا الكتاب على ما اختبرته بنفسي، وما أفاضه عليّ الشيوخ الأطباء الكبار؛ فأولهم استحقاقاً للتبويه الشيخ العلامة ابن سينا، فله على كل كلمة هاهنا، عارفة وعلى كل علم نؤنّيه طارفة. فمنه أخذت معظم أبواب الطب.

وعن أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد أفدت تعريب ما كنتُ أصلت من أسماء ومسميات.

فإليهما فضل ما في الكتاب من طب نافع، ومعنى شافع...»⁽³⁾.

فهو يذكر شيخه وما أفاده منه المرار الأوفى. وهكذا، فإنه بمناسبة مقالته الأولى عن «الماء» ينتقل إلى الحديث عن الماء عند الأطباء بمعنى «البول»، وسرعان ما يضيف: «وهو فن من فنون الصنعة لم نعرف من أجاده إجادة شيخنا العلامة ابن سينا»⁽⁴⁾، ثم ما يفتأ يردد عبر صفحات الكتاب العبارة: «وقد ذكر [أو: وقال] شيخنا العلامة ابن سينا...»⁽⁵⁾، أو «وأخبرنا شيخنا العلامة...»⁽⁶⁾، و«حدثني شيخنا العلامة»⁽⁷⁾، أو «وقال شيخنا العلامة... وحدثني...»⁽⁸⁾، أو

(1) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، تحقيق هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م، المجلد الأول، ص 258.

(2) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، المجلد الأول، ص 81.

(3) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 31.

(4) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 38.

(5) انظر، مثلاً، الجزء الأول: ص 44، ص 52، ص 69، ص 101 و 102، ص 123، ص 160، ص 165، ص 217، ص 256، ص 266. الجزء الثاني: ص 24، ص 33، ص 146، ص 284، ص 313، ص 387، ص 396. الجزء الثالث: ص 34، ص 149، ص 158، ص 217، ص 280، ص 284، ص 300، ص 362، ص 377، ص 392، ص 400، ص 418، ص 421، ص 433، ص 438، ص 481، ص 486، ص 506، ص 507.

(6) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الأول، ص 112.

(7) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 287.

(8) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثالث، ص 369.

«وحدثنا شيخنا العلامة»⁽¹⁾، و«وفي عبارة شيخنا العلامة...»⁽²⁾، و«وقد سمعناه من شيخنا العلامة»⁽³⁾، و: «سمعت شيخنا العلامة يقول: (...)»⁽⁴⁾، و«أنشدنا شيخنا العلامة لنفسه»⁽⁵⁾، و«وسمعت الشيخ يقول: (...)»⁽⁶⁾.

ولطالما كان بيدي شدة احترامه لشيخه وإعجابه به: «ولله درّ شيخنا العلامة ما أفقهه في الدنيا وتباغض أهلها وتحاسدهم». ويورد قصيدة له في ذم الحسد، ويضيف بعد إيراد القصيدة: «وللشيخ في ذم الدنيا وأهلها ما هو حقيق بالتسجيل لأهل البصائر والاعتبار». ويورد قصيدة له بهذا الصدد⁽⁷⁾. ويقول في مكان آخر: «ولله درّ شيخنا العلامة ابن سينا». ويورد شعراً له في حاسده⁽⁸⁾، وفي مكان آخر: «ولله درّ شيخنا العلامة إذ جمع بين الوعد والوعيد [في بيت شعري واحد]»⁽⁹⁾. ويقول عن داء الجدري: «وخيرنا شيخنا في علاجه بين... و...»⁽¹⁰⁾، ويبيدي رأيه بكل شجاعة: «قلت: وبالجملّة فعلاجه يرجع إلى اجتهاد الطبيب بحسب ما يراه في وقته».

أكثر من هذا، لا يفقد حسه النقدي حتى أمام أقدم وأشهر أطباء العرب القدامى الحارث بن كلدة الثقفي، حيث يقول: «وقال الحارث بن كلدة الثقفي، وكان في اليمن: من سره البقاء ولا بقاء، فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وليخفف الرداء، وليقل الجماع»، ويعقب على هذه النصائح الطبية بالنزوع التنسيبي الواضح: «فإن كان أراد أن ما ذكره يطيل العمر، فلا أحقّه. ولكل طبيعته، وربما أضّر بواحدٍ ما انتفع به غيره»⁽¹¹⁾. وفي هذا القول منتهى الحكمة. أكثر من هذا، تجده واقعياً كل الواقعية في أحكامه التنسيبية هذه. أولست تلفيه يقول في مدخل مادة «عُمُر»: «العُمُر والعُمُر: مدة بقاء النفس مع الجسم، والجمع أعمار. ولما تعذر دوام بقاء بدن الإنسان كان زمان بقائه منقطعاً متناهيًا. وذاك هو العمر. وتناهي الزمان لا يلزمه أن يكون بقدر معين، فلذلك ما اشتهر بين العوام أن العمر الطبيعي للإنسان مائة

(1) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثالث، ص 61.

(2) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الأول، ص 114.

(3) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، ص 74.

(4) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثالث، ص 460.

(5) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 386.

(6) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثالث، ص 137.

(7) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 89.

(8) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 174.

(9) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثالث، ص 492.

(10) انظر، مثلاً، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الأول، ص 249.

(11) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 278. ما

في شجاعة النقد:
«فإن كان أراد أن ما
ذكره يطيل العمر، فلا
أحقّه. ولكل طبيعته،
وربما أضّر بواحد ما
انتفع به غيره»

وعشرون سنة لا أصل له. ويجوز أن يعيش الإنسان ألوفاً من السنين (...). وإذا ما استقرينا أعمار الناس في هذا الزمان وجدنا أكثرها ما بين الستين إلى السبعين، وأن عمر الإنسان لا يتجاوز مائة سنة إلا في النادر جداً. وما يقال من أن بعض أهل السند والصين يعيشون كثيراً حتى يتجاوز كثير منهم مائتي سنة فلا صحة له⁽¹⁾.

ويعود إلى البيروني العودات الكثيرة⁽²⁾ طيلة كتابه، لكن أبهى عبارة تدل على التلمذة عليه التلمذة المباشرة هي التي يقول فيها: «وسمعت البيروني يقول: (...)»⁽³⁾.

ولا يكاد يذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي إلا مقروناً بـ: «رحمه الله»⁽⁴⁾.

لكن ما يميّز الرجل، كما ألمعنا إلى ذلك في ما تقدّم، هو استقلاله الفكري وجرأته على قول رأيه، فكثيراً ما أورد رأياً رائجاً، من آراء العامة حيث تعشش الخرافة، وقال عنه: «لا أحقه». انظره، مثلاً، في باب «الببغاء» حيث يقول: «وقيل إن لسانه يوجب الفصاحة أكلاً، ولا أحقّه»⁽⁵⁾، وانظره يورد الرأي القائل بأن من خواص الأترج أنه: «إذا جُفت منه نبتة تامة يبذرها وورقها وزهرها وحملت أورث القبول والمهابة»، ويعقب بالقول التنويري: «كذا قيل، ولا أدري كيف هو»⁽⁶⁾. بل يرد على أحد أكبر أطباء الحضارة العباسية إسحاق بن سليمان الإسرائيلي في ما ذهب إليه من أن «التدخن بثمره [الصليب الرومي] ينفع المجانين والمصروعين ويبرئهم، وكذلك إن أخذت من ثمرته وشربتها مع الجلنجبين نفعت نفعاً شديداً»، يعقب بالقول: «والظاهر أن هذا النفع خاص بعود الصليب الرومي، فأما الذي وقفنا عليه من أمر عود الصليب الهندي، عياناً وتجربة، فليس فيه ذلك»⁽⁷⁾.

أجل من هذا، يذهب في مذهبه النقدي مذهباً قصبياً، ففي مدخل الطمّث يستعرض بعض الآراء الطبية في الموضوع ممهداً لها بالقول: «وقرأت في كتب الأطباء المتقدمين ومقالاتهم ما لا أعرف له وجهاً (...)»⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 69.

(2) انظره، مثلاً، ص، الجزء الأول، ص 52، ص 69، ص 107،

(3) انظره، أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 440.

(4) انظره، مثلاً، الجزء الأول، ص 44، ص 67،

(5) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 100.

(6) المصدر نفسه، ص 194.

(7) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 410.

(8) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 470.

ويقول قولاً حكماً بديعاً: «الأرجى أن يُعدل إلى الغذاء ما أمكن الاستغناء عن الدواء»⁽¹⁾ وهو رأي العديد من مهرة أطباء اليونان، ويوجد قول شبيه له منسوباً إلى العديد من متتورة أطباء العرب.

ووجد في نسخة من كتابه في مادة «بضع» ما يشي بإبداع مزدوج: إبداع لغوي لطيف هو إبداع لفظ «الاستبضاع»، وإبداع أخلاقي: النكوف بالنفس وتزويها عن تحويل الطب إلى مهنة للامتهان: «واستبضعتُ الشيء: جعلته بضاعة (وبالله نعوذ ممن جعل الطب بضاعة، وهو الفاشي اليوم بين الناس)»⁽²⁾.

ويقول أيضاً في الحكمة الطبية وأخلاق الطبيب: «واعلم أن أول الطب معرفة مقدار الداء حتى يعالج بمقدار ما يحتاج إليه من علاج»⁽³⁾.

ومن أروع ما كتب ما كان لخص به كل ما قاله الفلاسفة والطبيعيون عن ظاهرة الإبصار، بما يشي عن روح الأزدي الفلسفية العميقة:

«ومذهبنا في الإبصار أنه يتم بأن يقع شبح المرئي على الحدقة، ثم تنقله إلى أمام القوة الباصرة، فإذا أدركت هذه القوة ذلك الشبح كان سبباً لشعور النفس بالمرئي فتدركه.

وقد قيل: إن النفس تدرك المحسوسات كلها بلا واسطة وأنه ليس للبصر قوة باصرة ولا للشَّم قوة تدرك الرائحة ونحو ذلك، بل المدرك لهذه الأشياء كلها هو النفس. وأكثر الفلاسفة ينقضون هذا الرأي، ويقولون: إن إدراك النفس لهذه الأشياء إنما يكون بتوسط إدراك القوى المخصوصة بها، ثم ينتقل ذلك الإدراك إلى النفس، والحق أن الأمر كذلك.

وللفلاسفة في إدراك المبصرات رأيان، أحدهما: رأي الرياضيين وأكثر الأطباء، وهو أن يكون بخروج شعاع من العين ويلقى المبصر، وثانيهما: رأي أكثر الطبيعيين، وهو أن يكون بوصول شبح المرئي إلى العين.

والأولون اختلفوا، فمنهم من يجعل من خروج هذا الشعاع على هيئة مخروطين، رأس كل واحد منهما في حدقة، وقاعدتهما هي السطح الظاهر من المرئي؛ ومنهم من يجعل خروجه لا على هيئة مخروطين، بل من كل حدقة خط مستقيم، ويلتقيان على سطح البصر، وينتقل طرفاها على المبصر بسرعة.

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 114.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 135.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 451.

الأرجى أن يُعدل
إلى الغذاء ما أمكن
الاستغناء عن الدواء

والحق أن وصول شبح المرئي، إنما يكون على هيئة مخروطين، قاعدتهما المُبصر وزاويتيها في الرطوبة الجليدية، وموضع الشبح، هو في سطح هذه الرطوبة. وربما كان موقعه في الطبقة العنكبوتية.

وأما كيف يتأدى المبصر إلى القوة الباصرة، فمنهم من يعترف بالجهل بذلك، ومنهم من يزعم أن هذا الشبح انفعال يعرض للجليدية، وإذا عرض ذلك فإن العصب النوري يدرك من هذا الانفعال، ويؤديه إلى داخل الدماغ.

وأما الحق في هذا، فهو أن الشبح يقع على داخل المقلة ثم تنقله كل واحدة من المقلتين إلى العصب النوري أمام القوة الباصرة. وهناك يتخذ الشبحان شبحاً واحداً بانطباق أحدهما على الآخر، فتدركه القوة الباصرة، ثم تنقله إلى داخل البطن المقدم من الدماغ فيبقى هناك محفوظاً، فكل وقت تلحظ النفس ذلك الشبح تتخيل ذلك المرئي⁽¹⁾. فانظره كيف يكتف في هذه اللحظة كل النظريات عن الإبصار في صفحة واحدة، وكيف يبدي رأيه في موضوع الإبصار بجرأة عجيبة.

ومن أروع ما أورده أيضاً كلام لابن سينا عن القهوة، ورد في بدايته: «وقد سألت شيخنا العلامة الأجل ابن سينا عن ماهية القهوة وطبعها ومضارها ومنافعها، فأجاب...»⁽²⁾.

والرجل جَوَّالة شديد التجوال. وهو من كان يوصف عند القدماء بأنه كان «سَفَّاراً». إذ يذكر في كتابه من البلاد النواحي الكثيرة التي زارها. ففي ما يخص مسقط رأسه، يورد المدخل «صحار»، ويقول بعد كلام: «وصحار: قصبَةُ عُمان، مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات، سُميت بصحار بن إرم بن سام بن نوح ﷺ :

ديار بها شدت عليّ تماثمي وأول أرض مس جلدي ترابها»⁽³⁾

ويقول في باب «الرنج» - وهو حب أملس مدور على قدر حب الماش لا رائحة له، يكثر في بلاد الهند وما وراء النهر: «وقد رأيتَه في جرجان كثيراً، وكان البيروني كثير العناية به لنفعه الكبير»⁽⁴⁾، ويقول عن بقلة الرمان: «وهي بقلة تكثر في ثغور الأندلس»⁽⁵⁾، بما لربما يفيد أنه كتب الكتاب وهو في الأندلس. ويقول عن

(1) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الأول، ص 132.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 157.

(3) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 388.

(4) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 122.

(5) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 143.

أجل، توجد
للعمانيين نصوص
فلسفية عظيمة
الشان

شجر البهق: «وقد رأيت الناس في صحار ومكة يمضغونه بقليل كلس ليطيب طعمه ويسرع بممازجته للأرواح»⁽¹⁾، ويقول عن الزقوم: «رأيته في أريحا من أرض الغور وفي أرض المقدس»⁽²⁾، ويقول عن شجرة التنوم: «والتنومة: شجرة رأيتها في بادية اليمن وعمان»⁽³⁾. ويبدو أن الرجل ما غادر عُمان مغادرة نهائية، فقد يكون تردد عليها على الأقل مرتين. يقول عن العنب الجرشي: «وكانت أشجاره تغطي الرؤية بين مسقط وصحار، ولم يبق منها اليوم إلا ما تفرق هنا وهناك»⁽⁴⁾.

ومثلما كانت بيوتات للحكماء الأطباء في المشرق وفي المغرب، فإنهم أيضاً كانت لهم بيوتات طب وحكمة.

ففي المشرق، كان ثمة آل بختيشوع، وهي أسرة سريانية نسطورية، زاول أكثر رجالها الطب والترجمة. ذاعت شهرتها منذ القرن الثاني الهجري. واشتهر منهم جرجس بن جبرائيل بن بختيشوع (158هـ/775م). كان رئيساً للأطباء ببيمارستان جنديسابور، وبختيشوع بن جرجس: (ت نحو 184هـ/800م): وهو الذي تولى رئاسة بيمارستان جنديسابور بعد أبيه، وابنه جبرائيل (ت 213هـ/828م): هذا الذي كان بدوره طبيب هارون الرشيد وجليسه، ومنهم بختيشوع الثاني، وهو ابن جبرائيل بن جرجس: توفي في سامراء سنة 256هـ/870م. ومنهم يوحنا بن بختيشوع الثاني (ت 290هـ/903م): كان طبيباً متميزاً، خبيراً باللغتين اليونانية والسريانية، ونقل من اليونانية إلى السريانية كتباً كثيرة. خدم بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل، وكان يعتمد عليه كثيراً ويسميه مفرّج كربى. ومنهم بختيشوع الثالث بن يوحنا (ت 329هـ/941م) وكان طبيباً نبياً، ومنهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع الثالث (ت 396هـ)، ومنهم أبو مخلد بن بختيشوع: توفي في بغداد سنة 417هـ/1026م، ومنهم عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع: (ت نحو 453هـ/1061) صاحب «مناقب الأطباء»، ألفه سنة 423هـ.

ومن الأسر الطبية التي اشتهرت في الحضارة العربية الإسلامية أيما شهرة «آل قرّة». وهم أبو الحسن ثابت بن قرّة وابنه سنان بن ثابت بن قرّة وحفيده ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة.

(1) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 206.

(2) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 210.

(3) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 207.

(4) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 260.

من تاريخ بيوتات
الطب والحكمة في
المشرق والمغرب
وفي عُمان

ومن الأسر الطبية المشرقية إلى الأسر الطبية المغربية الأندلسية: منها أسرة آل زهر، بطبيبيها الأول أبي العلاء بن زهر، وابنه أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، والحفيد أبو بكر بن زهر، وابنه أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر.

وفي عُمان، خذ مثلاً بيت ابن هاشم، فإنك واجد فيه من جمع بين الفقه والطب، فكان فقيهاً حكيماً. قال عن هذا البيت البطاشي: «وبيت ابن هاشم هذا، تخرج منه علماء، جمع بعضهم بين الفقه، وعلم الطب، فكان لهم فيه [يعني في الطب] مهارة فائقة، وشهرة واسعة، في معرفة الأمراض وعلاجها، فألفوا فيه الكتب المفيدة، السهلة التناول، الخالية من التكرار والتعقيد، بعبارات واضحة (...)»⁽¹⁾.

نذكر منهم الطبيب راشد بن خلف بن عميرة - عاش في أواخر القرن التاسع والثالث الأول من القرن العاشر الهجريين - صاحب القصيدة اللامية في الطب وشرحها... والطبيب الماهر راشد بن عميرة بن ثاني، الذي وصفه البطاشي بوصف «الطبيب الماهر، الفيلسوف»، صاحب المنظومة الرائية التي ذكر فيها أعضاء البدن الرئيسية، وشرحها الوجيز، وكتاب «فاكهة ابن السبيل» ومختصره، وتحس وأنت تتصفح هذا الكتاب أن صاحبه - وعلى خلاف مسلك الكتب الفقهية في التأليف التي ترى الفقهاء فيها يكتبون كثيراً ويفكرون قليلاً، ويُطَلِّقون كثيراً ويُتَسَبُّون قليلاً، ويسترسلون كثيراً ويعقلون قليلاً - إنما استعقل كلامه وأعقله وعقله. وهاك مثلاً من مقدمته:

«الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وخصه بالعقل السليم، وباللسان الفصيح القويم، وألهمه الحكمة، وجعل له الفضل العميم، وفضله على جميع المخلوقات، وأعطاه العطاء الجسيم، وبدأ خلقه في ثلاثة أحوال مختلفة، وركبه من أربع طبائع مؤتلفة. فأما الثلاثة التي ابتدأ بها خلقه، فأولها: النطفة الزبدية، ثم المضغة الدموية، ثم العلقة العظامية، فهذه الثلاثة المذكورة.

وأما الطبائع الأربع المشهورة، وثبات الروح النفساني: «فالحار، والبارد، والرطب، واليابس. فإذا اعتدل ذلك في ميزان الطبيعة، كان بها الصحة في جميع البدن؛ وإن زاد بعضها عن بعض، أو نقص بعضها عن بعض، وقع منها جميع الآفات، من الأمراض، والأعراض، والموت، وجعل خلقته تتغير وتختلف، باختلاف الليل والنهار، وذلك لتقلب حالاته، من الطفولة، إلى اعتدال الشباب، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، إلى الهرم، إلى أن يأذن الله بالرحيل...».

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثاني، ص 244.

من تاريخ حكماء التنوير

فبالبدل من أن يورد المأثور ويحشيه بالإسرائيليات التي لا علم فيها، تراه يورد المأثور ولكن يعمله كل التعليل بالعقل ويمنطقه بالمنطق. ولعل عمري، فهذا يذكرني أنه لئن هو اتفق أغلب مفكري الإسلام على ضرورة اجتناب «الحرفية» في فهم النص، وقالوا بمبدأ «التدبر» لمعانيه - مغلبين بذلك «الروح» على «الحرف» - فإنهم اختلفوا في بيان مدى هذه الروحية: ما بين مشدد بأشد التضييق، وموسع بأرحب التوسيع. هذا الإمام أبو إسحاق الشاطبي نفسه ما يفتأ يحيرنا بنظريته الفهمية التأويلية - الهرمنوطيقية - في قراءة النص القرآني. إذ لئن هو ذهب إلى استهجان «الحرفية» في هذا المقام، فإنه عمد إلى طرح تصور في قراءة النص الديني فريد أوحده، مبناه على هذا الأصل: «إن هذه الشريعة أمية لأمة أمية. وقد قال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا وهكنا»⁽¹⁾، ومقتضاه هذا: «ولأن الشريعة أمية، فلا يليق بها من البيان إلا الأمي»⁽²⁾. والحال أن مؤدى فهم النص على هذا النحو من الفهم استبعاد كل فهم «غير أمي» للنص! مثال ذلك قول الشاطبي في تفسير الآية: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا﴾ بعلم الهيئة أنه تفسير «غير سائغ»، وذلك «لأن ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها»⁽³⁾ فتأمل! وليس العلم وحده هو الممنوع من النظر في القرآن، بل الفلسفة أيضاً. فلا مساغ هنا لكي تتصور الفلسفة على القرآن وتجراً على ادعاء فهمه. يقول الإمام: «والفلسفة - على فرض أنها جائزة الطلب - صعبة المآخذ، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على أسنة أهل الشريعة، منبه على ذمها (...)»⁽⁴⁾.

غير أنه وجد من المفكرين المسلمين من تحرر من هذه القيود التي وضعها النصيون لفهم النص. هذا البيهقي يروي في كتابه تاريخ الحكماء عن أبي الحسن الأنباري الحكيم ما خالف اعتراض الشاطبي على فهم أي القرآن الفلكية بالعلم، فيقول عنه: «كان حكيماً، والغالب عليه علم الهندسة، وكان الحكيم عمر الخيام يستفيد منه وهو يقرر له المجسطي، فقال بعض الفقهاء يوماً للأنباري: ما تدرس؟ فقال: أفسر آية من كتاب الله تعالى، فقال الفقيه: وما تلك الآية؟ فقال الأنباري قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا﴾. فأنا أفسر كيفية بنائها».

(1) أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، المجلد الأول، ص 52.

(2) المصدر نفسه، ص 57.

(3) المصدر نفسه، ص 54.

(4) المصدر نفسه، ص 56.

وهذا عكس هذا الفهم للدين الذي نعثر عليه لدى طيبينا العُماني، ثمة فهم ضيق للدين ضيق كثيراً على المسلمين. فقد ميّز بعض الفقهاء - من داخل الفقه لا من داخل العلم - بين ما يجوز العلم به وما لا يجوز، واجتزؤوا مساحات كبرى وضعوها تحت علم الله، وما تركوا سوى هامش ضيق لعلم الإنسان. هذا ابن الجوزي يعرض إلى مسائل علمية ذات أهمية كبرى، فيقول: «ولو قال قائل: ما الصواعق؟ وما البرق؟ وما الزلازل؟ قلنا: شيء مزعج، ويكفي. والسر في ستر هذا أنه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه»⁽¹⁾. وخذ بنا إلى مثال ثانٍ - وهو مثال الصوفي المصري ابن عطاء الله السكندري حيث يقول وقد عرض إلى مسألة عالم الكواكب واقترباتها، وبالبديل من أن يطعن في علم التنجيم وينتصر لعلم الفلك يعمم الحكم بالتساؤل الاستنكاري: «ما فائدة التجسس على علم علام الغيوب؟ وقد نهانا سبحانه أن نتجسس على عباد، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، فكيف لنا أن نتجسس على غيبه؟»⁽²⁾. بهذا يصير العلم تسوراً على غيب الله وتجسساً، متى ينتهي العلم ومتى يبدأ الغيب، تلك حدود لطالما كانت ولا تزال غائمة في الفكر العربي الإسلامي.

وقد أجاب ابن الذهبي ابن الجوزي حتى قبل أن يعترض بمحاولته تفسير الصواعق في موسوعته: «الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد، كذا قال أبو زيد [البخمي]. ولم يفعل أكثر من وصفها. والصاعقة تتولد من خصائص الأبخرة المحتبسة في السحاب، والمتصعدة من مياه الأرض ونباتها. كما أن البخار هو المتحلل الرطب من الماء. وهو أجزاء أرضية صغيرة اكتسبت حرارة فتصاعدت لأجلها وخلطت الهواء، فلما ارتفعت تكاثفت وصارت سحاباً، وظلت محتفظة بحرارتها التي اكتسبتها في التبخير والتصعيد، فإذا التقت مع غيرها واحتكتا، حدث البرق، كما تحدث النار من احتكاك حجرين أو حديدتين»⁽³⁾. وبالطبع لم يكن يعرف الرجل الكهرباء، ولكنه جهد العقلاني.

ولصاحبنا هذا «الفيلسوف الشيخ» العُماني كتاب «منهاج المتعلمين» الذي ألفه لولده عميرة بن راشد، محيياً بذلك تقليداً لطيفاً دأب عليه مفكرو الإسلام في تأليف كتب لتأديب وتهذيب ناشئتهم. ومن أقدم ما تذكره كتب التراجم، كتاب الطبيب الفيلسوف أبي الحسن ثابت بن قرّة الحراني، «كتاب: «الذخيرة»، ألفه

(1) ابن الجوزي: صيد الخاطر، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى 2004، ص 60 - 61.

(2) أحمد بن عطا الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير، تحقيق: محمد أحمد أحمد، المكتبة التوفيقية، بدون سنة إصدار، ص 92.

(3) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، الجزء الثاني، ص 403.

لولده سنان بن ثابت⁽¹⁾، وورد في ديباجته: «هذا «كتاب الذخيرة» الذي يشتمل على ما يحتاج إليه من علم الطب في وصف الداء والدواء على أوجز ما يتهيأ أن يكون تجربة إمام زمانه «ثابت بن قرة» في العلوم الطبيعية، جمعه أيام حياته لابنه سنان بن ثابت بن قرة...»⁽²⁾. ويذكر ابن أبي أصيبعة كتاباً بعنوان آخر له: «كتاب إلى ابنه سنان في الحث على تعلم الطب والحكمة»⁽³⁾، ولعله الكتاب إياه. أما بختيشوع بن جرجس: (ت نحو 184هـ/800م) فإن لهذا الطبيب كتاب «التذكرة» الذي صنفه لابنه جبرائيل (ت 213هـ/828م). وللطبيب ابن مندويه الأصفهاني رسالة إلى ابنه في علاج بثور خرجت بجسده بماء الجبن، وهي رسالة صغيرة⁽⁴⁾. ولا غرابة في هذا، وأوليس هو صاحب كتاب: «رسالة في أوجاع الأطفال»⁽⁵⁾، ومن العائلات الطبية المشرقية إلى العائلات الطبية الأندلسية، لأبي العلاء بن زهر مقالة في الرد على أبي علي بن سينا في مواضع من كتابه الأدوية المفردة ألفها لابنه أبي مروان بن زهر⁽⁶⁾، وقد حافظ ابنه هذا على التقليد نفسه فألف كتاب الزينة تذكرة إلى ولده أبي بكر في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه، وذلك في صغر سنه، وأول سفرة سافر بها الأب ناب عنه ابنه على حداثة عمره⁽⁷⁾، كما ألف الأب لابنه كتاباً آخر هو كتاب تذكرة ذكر بها لابنه أبي بكر أول ما تعلق بعلاج الأمراض. وألف الطبيب المشرقي نزيل المقدس أبو عبد الله بن محمد بن سعيد التميمي رسالة إلى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدويته ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته⁽⁸⁾. ومنهم عميرة بن ثاني، وكان طبيباً وفقهاً... وكان من علماء النصف الأول من القرن العاشر الهجري...

ومن الأطباء من بيت ابن هاشم العالم الطبيب الشيخ علي بن مبارك بن خلف بن محمد بن هاشم، وقد عدد بعض الشعراء في مرثياتهم له مناقبه ووقفوا عند حكمته وطبه مقارنين إياه بأكبر أطباء اليونان.

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ص 199.

(2) ثابت بن قرة، الذخيرة في علم الطب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ص 11.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ص 200.

(4) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 28.

(5) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 32.

(6) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 106.

(7) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 109.

(8) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، الجزء الثالث، ص 146.

هذا الطبيب العُماني ابن هاشم العيني الرستاقى، شيخ أطباء عُمان، وينتمي إلى بيت ابن هشام هذا فقهاء حكماء، كان لهؤلاء في الطب مهارة فائقة. وما كانوا من الأطباء من أهل الصحف، الذين يكتفون بقراءة صحف الأطباء ويؤلفون في الطب، على غرار العديد من فقهاء المشرق والمغرب، وإنما كانت لهم بالطب خبرة عيانية، وأي خبرة، وكان لهم بالحكمة حذق، وأي حذق. منهم الشيخ راشد بن خلف، من علماء أواخر القرن التاسع والثالث الأول من القرن العاشر الهجريين، صاحب القصيدة اللامية الشهيرة في الطب ومؤلف شرحها. ومن قوله في المقدمة ذكراً صعوبات البداية مقراً بعجز الابتداء مذكراً أن الرغبة الأولى يكون دائماً مليئاً بالرماد، كما يقول المثل الروسي الشهير، ثم سرعان ما ينشأ علماً للطب قوياً في عُمان:

نظرتُ إلى كثير من كتب أهل عُمان، فوقفْتُ على نظم لهم في علمي الأحكام والأديان، وفي علم اللسان، ولم أقف لهم على نظم في علم الأبدان؛ فدعتني الرغبة إلى أن أنظم مختصراً من كتاب: «الرحمة في الطب والحكمة»، وحذفتُ بعض الأبواب من أوله، وأشرتُ إلى بعضها إشارة، وأدخلتُ أشياء من كتاب «مختصر أبقراط»، ومن كتاب «برء ساعة» لمحمد بن زكريا، ومن كتاب «تقويم الأبدان» لمحمد بن إبراهيم، ومن كتاب «منهاج البيان» له أيضاً، وغير ذلك...»⁽¹⁾.

ودون أن ننسى الطبيب والفقير العُماني علي بن عامر النزوي - من علماء القرن الحادي عشر - وقد أظهر حذقاً شديداً لمهنة الطب، وبينه وبين الطبيب بشير بن عامر الفزازي الإزكوي مراسلات وأبحاث طبية دقيقة⁽²⁾، بما دلَّ عن أن علماء عُمان ما كانوا ليوقفوا جهود مراسلاتهم وسيرهم وأجوبتهم على الفقهيات وقفاً، وإنما تداولوا في الطبييات والحكميات واللغويات وغيرها من الفنون كثير.

ومنهم الشيخ علي بن عامر النزوي، وهو فقيه وطبيب، من علماء القرن الحادي عشر، وبينه وبين الطبيب بشير بن عامر الفزازي الإزكوي، مراسلات وأبحاث في الطب، ويوجد لهما مختصر في هذا الفن على هيئة سؤال وجواب (...). وكان طبيباً حاذقاً⁽³⁾.

ولا أدلُّ، يا عزيزي، على خلو هذه الثقافة من «العقدتين» - «عقدة الدونية» و«عقدة الفوقية» - التي عادة ما تصيب الثقافات في مقتل، من اجتيازها ما كان

(1) أورده سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 248.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 398 - 399.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 398.

قد سماه المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان باسم «طور المرأة»، من الأطوار الهامة التي عليها منقلب حياة الإنسان، وهو الطور الذي إن اجتازه الإنسان بسلام عاش حياة نفسية سليمة من غير عقد سقيمة. ويتمثل هذا الطور في أن ينظر المرء إلى وجهه في المرأة، بأول نظر يكون، فلا يجزع من انعكاس صورته في تلك المرأة ولا يخجل. وإذا ما هو بدا له وجهه دميماً فلا يتهم المرأة.

هذا على مستوى الفرد الواحد، أما على مستوى ثقافة الجماعة من الأفراد، فإنه بالنسبة إلى ثقافة معينة، تسمي المرأة هنا عدل النقد وصنوه. فلأن تنظر ثقافة ما في مرآة نفسها، إنما معناه أن تنظر النظر النقدي إلى ذاتها، فتتعرف، بلا مركب نقص أو جنون عظمة، على ما لها وعلى ما عليها. والحال أنه لطالما انتقد أهل عُمان ومن ذهب مذهبهم بعض مناحي القصور في ثقافتهم، ومنها مثلاً إهمال تدوين تاريخهم، بل وإهمال صون ثقافتهم... لطالما هم بتوا الشكوى بهذا الأمر. تأمل في ما يقوله الإمام السالمي عن أهل عُمان: «لم يكن التاريخ من شغل الأصحاب بل كان اشتغالهم بالعدل وتأثير العلوم الدينية، وبيان ما لا بد من بيانه للناس؛ أخذاً بالأهم فالأهم. فلذلك لا تجد لهم سيرة مجتمعة ولا تاريخاً شاملاً، فتتبع ما أمكنني تتبعه من كتب السير والآثار، والتواريخ، وكتبت ما أمكنني أن أكتبه من أحوال عُمان وأئمتها من أول أمر العرب فيها إلى آخر ما انتهى إليّ علمه من أخبار أهلها الماضين ليكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعبين»⁽¹⁾. متحدثاً عن «إهمال التاريخ وقلة الاعتناء به»⁽²⁾، مذكراً مرة أخرى بأن: «أهل عُمان لا يعتنون بالتاريخ، فلذلك غابت عنا أكثر أخبار الأئمة، فكيف بأخبار غيرهم؟»⁽³⁾، جاعلاً من هذه السمة طبعاً لأهل العلم من عُمان: «(...) لكن الطبع غلب عليهم، فقد جرت العادة عندهم بإهمال التاريخ اشتغالاً بالأهم»⁽⁴⁾.

واعطف عليه بما يؤكد البطاشي في مواضع عديدة من كتابه بت فيها شكواه من عدم اهتمام العُمانيين بالتاريخ. يقول في مقدمة الإتحاف:

«(...) أما التاريخ، فالظاهر من أمرهم أنه لم يكن لهم كبير اعتناء، ولم يؤلفوا فيه كتباً مستقلة إلا ما يوجد عرضاً في كتب الفقه والولاية والبراءة، مع ما للتاريخ من أهمية لا تنكر، وفوائد لا تحصر»⁽⁵⁾.

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، المجلد الأول، 1301هـ/1981م، ص 4 - 5.

(2) المصدر نفسه، ص 280.

(3) المصدر نفسه، ص 253.

(4) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، المجلد الثاني، 1301هـ/1981م، ص 45.

(5) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 16.

الجرأة على النقد الذاتي في ثقافة أهل عُمان

ويشتكي البطاشي من ترك ذخائر الفكر العُماني تعبت بها الأرضة. وهكذا، فبعد أن لاحظ في مقدمة الإتحاف على العُمانيين: «فقدان كثير من مؤلفاتهم، إما بعوامل طبيعية، أو حروب قبلية، أو غزوات جاءت من خارج البلاد، أو أيادي أئمة جنت على تلك الكنوز الثمينة، أو إهمال وعدم اعتناء ممن هي في يده...»⁽¹⁾، يفصل القول في الجزء الثالث من كتابه، بمناسبة ترجمته لسعيد بن سليمان السليمانى (من علماء القرن الثالث عشر)، ما يلي: «وقد كان من السليمانيين بنزوى رجال فقهاء، وكانت لهم كتب كثيرة مخطوطة، يبدو أنها قد ذهب أكثرها. وقد اطلعتُ على بعضها، بعد أن أتت عليها دابة الأرض، ولم يبق منها ما يصلح للاستفادة منها»⁽²⁾.

كما ذكر في الجزء نفسه أنه كانت للشيخ سلطان بن محمد البطاشي مكتبة بالبلد (إحدى)، تضم كثيراً من الكتب المخطوطة، وقد ذهبت كلها، ولم يبق أيدينا إلا ثلاثة كتب...⁽³⁾.

وبعد انصرام صفحات كتب يقول بمناسبة ترجمة العلامة عبد الرحمن بن بلعرب البطاشي (من علماء القرن الثالث عشر الهجري):

«وسمعتُ والدي يقول: إن للشيخ عبد الرحمن مكتبة عندنا بالبلد [قرية إحدى من وادي الطائيين]، تحتوي على أكثر من ألف مخطوط، وقد اختار منها بعض أقاربه - وهو الشيخ عدي بن محمد بن فارس البطاشي - ستمائة مخطوط، فنقلها إلى بلد «الحاجر»، بوادي دما، حيث أنها كانت من بلدانهم في ذلك الزمان، ثم ذهبت تلك الكتب من البلدتين: «إحدى» و«الحاجر»، ولم يبق بأيدينا من كتبه إلا كتاب «تسهيل المنافع»، في الطب، كان قد اشتراه والده، وكان منسوخاً للشيخ ناصر بن مهنا بن سيف اليعربي (...)⁽⁴⁾.

وفضلاً عن هذا التلف الذي لحق الكتب، بعوامل داخلية، يعد بعض أهل عُمان مسؤولين عنها، ثمة ما لحق الكتب من إحراق بعوامل خارجية. إذ يذكر الأزكوي في كتاب «كشف الغمة» في أحداث خروج أولاد الرئيس على عُمان سنة 675هـ ما يلي:

«ووجدت أيضاً تاريخاً آخر، خرجت أولاد الرئيس على عُمان، وكان خروجهم فسح شهر شوال سنة خمس وسبعين بعد ستمائة، وكان الملك لُعُمان السيد

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 16.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 258 - 259.

(3) المصدر نفسه، ص 275 - 276.

(4) المصدر نفسه، ص 357.

أكثر كتب أهل عُمان
أكلها السوس أو
احترقت فيما احترق

كهلان بن عمر بن نبهان، فخرج إليهم ليلقاهم بالصحراء، وخرج معه جملة من أهل العقر كافة، فسبقت أولاد الرئيس على العقر، فدخلوها، وأحرقوا سوقها، وأخذوا جميع ما فيها، وسبوا نساءها، وأحرقوا مخازن المسجد الجامع المتصلة به، وأحرقوا الكتب، وكان ذلك كله في نصف يوم»⁽¹⁾.

ويذكر الأزكوي في أحداث عام 1133هـ - وهي من أعوام فتنة الرستاق - أنه:

«وفيما بلغنا أنه احترق مائة وخمسون رجلاً، واحترقت كتب كثيرة مثل بيان الشرع، والمصنف، وكتاب الاستقامة، ومجلات الطلسمات، قدر أربعين مجلداً، واحترقت كتب كثيرة، لم يكن لها نظير بعمان»⁽²⁾.

ويذكر نور الدين السالمي في التحفة في إطار ذكر حروب محمد بن بور لعمان وقتل عزان بن تميم: «فلما انهزم أهل عُمان رجع محمد بن بور على نزوى، وجعل أعزة عُمان أذلة، وقطع الأيدي والأرجل والأذان، وسمل الأعين، وأحل على أهلها النكال والهوان، ودفن الأنهار وأحرق الكتب»⁽³⁾.

ويذكر أن مكتبة العلامة عدي بن سليمان الذهلي تضم ذخيرة من نفائس المخطوطات النادرة والرسائل الفريدة، وقد تعرضت مكتبته للحرق والسرقه. فقد كر عليه أعوان يعرب بن ناصر، فقتلوه وهو في القيد والصلب، وقتلوا معه رفيقه الشيخ سليمان بن خلفان، وعاملوهما معاملة لم يعهد أن عامل بها جبابرة عُمان أحداً من أهل عُمان أو من غيرهم، فإنهم أمروا بسحبهما في الطرق كما تسحب الفرائس، وذلك يوم الحج الأكبر، ولم يحترموا على الأقل العلم. (أورده صاحب النمير).

هذا وقد انفرد العلامة سالم بن حمود السيابي برأي شاذ في هذا الأمر، فعلى قلة تأليف العمانيين بعوزهم المادي، قائلاً: «اعلم أن أغلب علماء عُمان أعظم عللهم الفقر، وأكبر مؤخر لهم عن التأليف العسر، ولم تكن لهم دولة غنية بمعنى الكلمة، فلذلك ترى مؤلفاتهم في الزوايا تلعب بها الحشرات» (أورده صاحب النمير نقلاً عن مقدمة كتاب الشيخ خلفان بن جميل السيابي، فصول الأصول، ص 7).

(1) سرحان بن سعيد الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، تحقيق: محمد حبيب صالح ومحمود بن مبارك السليمي. وزارة التراث والثقافة. الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، الجزء السادس، ص 21.

(2) سرحان بن سعيد الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، الجزء السادس، ص 83. وانظر أيضاً: حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص 266.

(3) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، ص 261 - 262.

ومنها، قلة العناية بالتدوين في الحكميات والطبيات. وقد كتب الطبيب العُماني الشهير الشيخ راشد بن خلف، في شرحه لقصيدته اللامية في الطب، ضمن مقدمته لهذا الشرح الحافل:

والرد كان بفتح باب الاجتهاد وذم التقليد عندهم. وذلك على نحو ما ورد في كتاب ابن النظر «الوصيد في ذم التقليد».

وكانوا يتفادون التعصب في الفتوى ما أمكنهم ذلك. ومن ذلك ما دار من مناظرة ودية بين عالمين كبيرين من علماء المغرب هما: أبو خرز وأبو القاسم. فقد طرحت بينهما مسألة رجل قال: «لا إله»، ثم سكت، و«لا حول ولا قوة»، وما نسب بينت شفة، ما الحكم فيه؟ هاهنا يتضح الفرق بين متشدد كل مذهب ومتيسريه. قال أبو خرز: «أشرك؛ لأننا يلزمنا الحكم بالظاهر»، وقال أبو القاسم: «بل في المسألة احتمال، لعله يعني لا إله في الأوثان، وأضمر في نفسه تتميم الكلام، ولا نظن بالمسلم إلا خيراً، ولا نخرجه إلى الشرك بالاحتمال. وهذا كما قيل عن الإمام أفلح: أن من دين الله أن أحداً إذا جاء بوجه يحتمل وجوها حمل على أحسنها»⁽¹⁾.

ولئن كان ما ضاد العنف هو الرفق، فإنهم كثيراً ما اعتمدوا الرفق في تدبير أمورهم، حتى أنك كنت تجد الأب يرفق بابنه في تأتي الأمور، فلا يجبهه ولا يعنفه. خذ مثلاً ما رواه الدرجيني من سير أهل المغرب، فقد ذكر أن أبا يعقوب يوسف بن سهلون كان كثير السياسة كثير الرفق، وكان له ابن يسمى أيوب، وكان إذا أراد أن يأمره بشيء أشار إشارة أو ساقه في حكاية لئلا يغلط عليه الأمر فيخالف فيعق، وكان إذا أشاره بشيء امتثله، وأتى به على حسب ما يرضيه، ويجيء على وفقه، حتى ضرب بهما المثل في بر الابن للآب والآب للابن، فقالوا: «الآب كأبي يعقوب والابن كأبيوب»⁽²⁾.

ولك أن تعتبر بسيرة الإمام أبي الخطاب من بناء الدولة الرستمية، فقد تواترت الحكايات عن رحمته الزرع والخلق:

لما حاصر أبو الخطاب مدينة القيروان أمر أصحابه ألا يفسدوا زرعاً ولا غيره. وحدث بعضهم أن شيخاً من شيوخ القيروان بعث ابناً له يرتاد مزرعة كانت

(1) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 345. وانظر الشماخي، ص 323. وانظر أيضاً: الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 848.

(2) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 423. وانظر أيضاً الشماخي، ص 393.

التورع في فتاوى الدماء

له بقرب منزل عسكر أبي الخطاب، فقال: يا بني، إذهب وانظر هل بقي في مزرعتنا شيء، قال: فخرج الغلام إلى المزرعة فوجدها سالمة لم ينلها فساد، فرجع الغلام إلى أبيه فأخبره، فعجب لذلك وعجب الناس لعدل أبي الخطاب وسيرته وطاعة أصحابه له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه. وكان من مقالة الشيخ المذكور إذ ذاك لمن حضره من أهل القيروان: أتظنون أن أبا الخطاب يشبه من ولي عليكم قبله ديناً وفضلاً؟ وأن سيرتهم كسيرته حسناً وعدلاً؟ كلا والله. أين مثل أبي الخطاب في سيرته وعدله وفضله؟

وتذكر كتب التاريخ أن أبا الخطاب لما هزم ولاية القيروان أحسن في من حاربه السيرة وأمر أصحابه ألا يتبعوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، فقال رجل من لواتة من عسكر أبي الخطاب يقال له خالد: أأكل من أموالهم كما يأكلون أموالنا ويعتقدون أنها غنيمة أحلت لهم؟ فقال أبو الخطاب: «إن فعلنا كما فعلوا فحق على الله أن يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم فنكون كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيهِمْ لِأَخْرَبَهُمْ فَمَا كَانُوا لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٨﴾»⁽¹⁾.

وهذا عُمانى يقال له حيان بن سالم، من أهل عُمان، من طي، وكان فاضلاً، وكان يقول لأبي عبيدة: إذا جاوزت نهر البصرة فأنا أفقه منك، ولو كنت أنت نبياً ما أجابك أحد لما ترى من تشديد على الناس، فضحك أبو عبيدة من قوله وقال: يا لها من موتة كموتة حيان⁽²⁾.

وهذا أبو الربيع بن زرقون، عالم من علماء جبل نفوسية، يحكى عنه أنه مرَّ على غدير ماء في فصل الشتاء، ومعه عالمان آخران متقيان، وكان في وقت صلاة، فلم يتوضأ خشية الضرر من البرد. وغسل أحد الآخرین يديه، وتوضأ الآخر، فأخذه شدة البرد، فوقع، فلفه صاحباؤه في ثيابه، وحمله، وقال له العالم السموح: «لم تهون على نفسك أن تتيمم لصلاة واحدة، فتيمم الآن لصلوات!»⁽³⁾ وجاز على بلدة ريصو، فوجد بها أربع فرق من الإباضية: مستاوة أتباع عبد الله بن زيد، والخلفية أتباع خلف بن السمح، والنفائثية أتباع نفاث بن نصر، وأهل الدعوة،

(1) الدرجيني، طبقات مشايخ، المجلد الأول، ص 30 - 31.

(2) الدرجيني، طبقات المشايخ، المجلد الثاني، ص 239.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 224. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني،

ص 350.

وذلك في أيام أبي الخطاب وسيل. فأمر بالقضاء والأحكام لأبي الخطاب، والفتيا للنكار وهم مستاوة، وإمامة رمضان للخلفية، والأذان للنفائشة. وأمام هذا الموقف التوافقي، صمد الرجل ضد بني جلدته من جبل نفوسة الذين عابوا عليه وعاتبته في استفتاءه النكار، والتزامه الأمر ليقظان، وتقديمه خلفياً...⁽¹⁾.

والشيء بالشيء يذكر، هذا محمد بن سودرين، وكان إماماً عالمياً ورعاً. ويحكى من ورعه ما ذكر أنه كان بالساحل، فرأى باباً مفتوحاً، والناس بين داخل وخارج. قال: فدخلت، فإذا رجل جالس على دكان، وكل من دخل أعطاه ديناراً. فأعطاني ديناراً، فخرجتُ، فوقع في نفسي، واستتبعْتُ فعلي، فرجعت، فقلت: أنا على خلاف مذهبك. فنظر فيّ وتبسم، وزادني ديناراً. ألا ترى أنه لم يقبل صلة من ظن أنه مخالف حتى تحقق أنه أثره بها؟⁽²⁾ وعلى العكس من هذا تماماً، هذا الفقيه أبو نوح سعيد بن زنگيل، وبعد سلامته من نكبته، خرج الناس يتلقونه بالترحيب مسرورين بسلامته مما كان فيه فرحين بقدمه عليهم، فجعلوا يجمعون ما أمكنهم ويحضر كل منهم ما قدر عليه من المال الناطق والصامت ليحبوا مصابه، فقبل ذلك منهم ليقضي منه ما اعتقد أن ذمته به عامرة، قيل فجاءه رجل بدينار فدفعه إليه فتناوله فقال له بعض من حضر: «أتعرف من هذا؟» قال: «لا»، قال: «إنه رجل نكاري»، قال: «ردوه»، قال: فرجع فقال: «خذ دينارك»، فقال: «لم؟» قال: «لأن النفوس طبعت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وإني لا أريد أن أحبك»، فرده عليه⁽³⁾.

وكما أسلفنا لكل مذهب متشدده ومتسامحوه. خذ مثلاً مسألة معاملة غير الملي. أنت واجد في ترجمة الشيخ المتبتل أبي المهاصر الأظماني أنه كان قد خرج إلى البادية أثناء الربيع في سنة من السنين (...). فرجع إلى منزله، واستصحب معه من تحف البادية. فلما بلغ قسّمها بين الأقارب والجيران والفقراء ومن تجب مواصلته. وحدث أن أعطى إلى يهودي، فقال اليهودي: «اللهم لا تساه من رحمتك كما لم ينسني!» قال أبو مهاصر: «ذلك ما أبتغي عندك».

ذاك رجل متسامح، لكن ثمة متشدداً بعض تشدد مثل أبي العباس الدرجيني علق على هذه الحادثة بالقول: «لعله إنما أراد ما يعطفه ويلين قلبه ويدخله إلى

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 225. وانظر الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الأول، ص 112 - 113.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 373. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 482. والدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 398.

(3) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الأول، ص 152.

الإسلام، وإلا فأبو مهاصر لا يجهل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22] (1). ويعقب الشماخي وقد حاول
الحد من تشددية الدرجيني: «قلت: إنما يريد ما يجده عند الله، لأن الله أمر
بذلك، إذا كان جاراً أو قريباً أو فقيراً ذا حاجة» (2). فهذا فهم لتصرف الشيخ مع
اليهودي، وذاك فهم، وكما في الثقافة الإسلامية برمتها وجد الفهمان معاً، وتعايشا
طوراً، وتصارعاً طوراً آخر.

والأمر بالأمر يذكر، فهذا الفقيه أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوري
- من جبل نفوسة - دعاه رجل من أهل تمنكرت يبيت عنده، فالتقيا يهودياً، فقال له
التمنكرتي: مرحباً! فقال أبو القاسم: لا رحب الله بك إلى ثلاث، ورجع عنه
وتركه (3). وعكسه معاملة ما ذكر عن القاضي أبي يحيى زكريا الأرجاني - من جبل
نفوسة - يروى عنه أنه أتاه يهودي تاجر، فألقاه خلط دقيقا بالماء، فعجنه ليأكله
نيئاً من غير طبخ، فمد له قبضة، فقال له: كلها طيبة! قال اليهودي المترف:
فأكلتها، فما أكلت أطيب منها (4).

وهذا القاضي أبو يحيى زكريا الأرجاني، قاضي جبل نفوسة، يروى أنه وُلد له
ولد، فجمع اليهود له أربعين ديناراً، وقالوا له: «خذها خرساً لولدك»، فقال:
«لو قدرت أن أصونكم لأخذت الجزية»، وأبى أن يقبلها، وأطعمهم عنياً، وانصرفوا.
قالوا: «ما رأينا مثل هذه البلاد، لا يطمع سلطانها في أموال الناس» (5).

وفي السياق نفسه، ذكر في السير أن رجلاً سأل الفقيه عمرو بن عمرو بمحضر أبي
مهاصر عن أخذ من مال ابن طولون خزجاً، فتاب ولم يعلم له صاحباً - قال:
تسأل عن مولاة، فإن أعياك أمره فتصدق به. فغضب أبو مهاصر، وقال: «لا أقعد
في مجلس يفتى فيه بمثل هذا» - قال عمرو بن عمرو: إن أردت أن تقعد فاقعد، فإن من
شأن المسلمين ألا يؤيسوا أحداً من رحمة الله» (6).

ولهذه الحثيات، ليس يصح أنهم ما أنتجوا سوى الفقه. وما قاموا سوى
بالتكرار والاجترار. وإنما وجد منهم العالم المختبر المجرب، الذي ما كرر أحداً

(1) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 307.

(2) المصدر نفسه، ص 114 - 115.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 162.

(4) المصدر نفسه، ص 172.

(5) المصدر نفسه، ص 171.

(6) الشماخي، كتاب السير، ص 151.

ما رأينا مثل هذه
البلاد، لا يطمع
سلطانها في
أموال الناس

واجتر كتاباً. أوليس أسد الجبار ابن ماجد كان يقول: «فوالله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها عشرين سنة، وإني لم أترك في السماء نجماً إلا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته»؟

هذا بيت الرستميين في المغرب، ما كان فيه الفقهاء وحدهم أهل الفكر. فقد قال أبو زكريا: «وكان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه: من الأصول، والفقه، والتفاسير، وفنون الدين، والرد على المخالفين، وعلم اللغة، والنجوم، والإعراب، والفصاحة (...)»⁽¹⁾.

وفضلاً عن هذا وذاك، فقد ضاعت العديد من كتب القوم:

هذا الطاغية خردلة الجبار الذي كان يحكم سمائل برفقة حكام أشبه ما يكونوا بملوك الطوائف حيث تأمر بعمان على كل ناحية أمير، وسار في الناس بالعسف لأزيد من أربعين سنة، وكأنهم طفاة اليونان الثلاثين... فقد نكل بالعالم ابن النظر وأمر بإحراق كتبه، وكانت له خزانة حافلة. وقد ذهبت مؤلفاته الثمينة، ولم يبق لها أثر يذكر، وضاعت بلك ثروة علمية هائلة، بما في ذلك كتابه «سلك الجمان في سير أهل عُمان» - الذي قيل إنه كان في مجلدين - فلم توجد منه إلا تسعة كراريس محروقة⁽²⁾.

وتحالفت عوادي الزمان مع انعدام الأمان، لتنال من التراث العُماني أشد ما يكون النيل. ذلك أن سوء حفظ المخطوطات أتى عليها وانتهى بإتلافها، كما أسلفنا.

وبعد، فإن ثمة تراثاً عظيماً من الحكمة ينتظر فقط من ينبش عنه ويخرجه إلى الناس في الحلة التي تليق به. فكثيراً ما قرأنا في كتب السير والتراجم مثل هذه العبارات تخص أغلب المترجم لهم من علماء وحكماء وأدباء:

«حفظ عنه في الأخلاق حكم قد خلدت في بطون الكتب» (مقتطف من سيرة أبي عبد الله محمد بن بكر).

وهذا أبو ميدول مطكداسن الزنزفي: «وتحكى عنه الحكم والأمثال والإصابة في الأقوال والأفعال»⁽³⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 107.

(2) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان. الجزء الأول. ص 388.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 390. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 420.

وهذا أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي ذكر أن المشايخ يذكرون عنه كلمتين من الحكمة⁽¹⁾.

ويورد الدرجيني في ترجمة ليخلف بن يخلف وابنه: «وسمعتُ جماعة ممن أدركه وممن أدرك من أدركه يروون عنه ألفاظاً من منثور الحكم هو منشؤها لو قيدت صارت دواوين كلها نافعة للعالم والدين»⁽²⁾.

وعن أبي زكريا بن أبي مسور اليراسني يقول الدرجيني: «وله أمثال كثيرة حكيمة في الناس يقتدون بها في أمورهم، حتى أن بعض المشائخ قال: «لو أن الألفاظ الحكيمة التي يلفظ بها أبو زكريا تثبت وتحضر في الدواوين لضاعت عنها»⁽³⁾.

ويروي الدرجيني عن أبيه عن الفقيه الحكيم يوسف بن سد ميمان:

«قال ثم أورد علينا من المواعظ والحكم والأمثال ما لم أسمع من أحد قبله ولا في حلقة من الحلقة»⁽⁴⁾.

وذكر عن رجل من بني ويليل يقال له: «بياضة بن سودرا»، ويكنى «أبا تملي» أنه قال: «لو أنصت أهل الدعوة واستمعوا لجميع ما يقوله هذا الشيخ - يعني أبا عبد الله بن بكر - لكان كلامه كله حكمة، إما للدين وإما للعالم؛ لأنه حكيم زمانه»⁽⁵⁾.

وقد ورد في سيرة أبي خرز: «ما أروعه، فما سمع شيئاً من الفضائل قط إلا عمله وعلمه»، ذلك هو الحكيم وتلك حكمته (من سيرة أبي خرز).

وورد في سيرة العلامة لواب بن سلام أنه: «أوتي الحكمة صغيراً، فدام على منهاجها إلى أن صار كبيراً»⁽⁶⁾.

وورد في سيرة الشيخ أبي محمد عبد الله بن زورتن الوسياني (أحد شيوخ كنومة، من الطبقة التاسعة 400 - 450هـ/1009 - 1058م) أنه كان: «من أختيار زمانه علما وورعا وإحياء للسّير والأدب»⁽⁷⁾.

(1) الوسياني، السّير، الجزء الثاني، ص 546.

(2) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، المجلد الثاني، ص 515.

(3) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 162.

(4) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 523.

(5) الوسياني: السّير، الجزء الثاني، ص 839 - 840.

(6) الشماخ، كتاب السّير، ص 174.

(7) الوسياني، السّير، الجزء الأول، ص 340.

تراث من الحكمة
يحتاج إلى من
ينفض عنه الغبار

وورد في سيرة أبي سليمان داود التبرستي أن له: «وعظ وكلام ومناقب وعبادة واجتهاد وكرامات»⁽¹⁾.

وقد ألفوا السّير وبسطوا فيها الكثير من مآثر الحكمة ومآثوراتها.

وألف الشيخ أحمد بن عبد الله الكندي كتاب «سيرة البررة».

وللشيخ موسى بن محمد الكندي كتاب في الحكمة الزهدية سماه: «جلاء الأبصار في الزهد والمواعظ والروايات».

وللشيخ الفقيه عامر بن عبد الله بن غريب النزوي العقري كتاب «مكارم الأخلاق وجواهر الأعلام».

كما ألفوا في «النكت الحكيمة» [الطبية]، على نحو ما نجده في مؤلف الطبيب راشد بن عميرة «منهاج المتعلمين» الذي ألفه لولده عميرة بن راشد، وأورد في أوله بعد البسملة:

«هذا مختصر في النكت الحكيمة، مما سألتني عنه ولدي عميرة بن راشد بن عميرة بن ثاني بن خلف الهاشمي الرستاقى العُماني... فأجبتة بما صحّ عندي من المعرفة، على قدر السؤال».

وقد افتتحه بدرر من الحكمة، حيث قال: «اعلم - أيديك الله وأرشدك لطريق الرشاد - فيما سألتني عنه عافاك الله - عن العقل والأدب.

اعلم أن الأدب لا يكمل إلا بالعقل، فإذا تم العقل كمل الأدب.

واعلم أن العقل نور متصل بين القلب والدماغ، فإذا اتفقا لأحد، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة، وهما أفضل عطاء. وأول ما يُسال عنه العبد يوم القيامة عن العقل وآيات. وهي الحواس الخمس، وهي النظر والسمع والشم والذوق واللمس. وهذه الحواس تسمى «خدم الفؤاد»، إذ لا يهتدي إلا بها ويكمل. قال المتنبّي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

واعلم أن العقل عقلان: عقل مثمر وعقل عقيم.

فأما العقل المثمر، فهو الذي يبلغ صاحبه إلى توحيد الله تعالى ومعرفته وطاعته ومرضاته وأداء الواجب واللازم واجتناب المنهي من الموبقات.

(1) الشماخي، كتاب السّير، ص 264.

وأما العقل العقيم، فينقسم - أيضاً - إلى قسمين: أحدهما أوضع من الآخر. وهو ما بلغ صاحبه إلى درجة تبلغه المراد من أمور الدنيا، وتقف عن أمور الآخرة. والقسم الثاني منه وقف دون تبليغ المراد من أمر الدنيا والآخرة، ذلك هو «الخسران المبين».

كلا، ما كان كل علماء القوم بفقهاء. وإنما وجد فيهم الحكماء الأطباء. تكفي السنبلة الواحدة من البيدر.

فهؤلاء كلهم علماء حكماء، وقد جمعوا بين العلم والحكمة، وألّفوا فيهما معاً. ولئن كان تم الاهتمام بفقهم، فأخرج إلى الناس ولا يزال يخرج، فإنه قلما تم الاهتمام بحكمتهم، كأنها من باب المظنون به على غير أهله. وحرام أن تبقى هذه الحكمة سجيئة في بطون الكتب، وألا يتم إخراجها للناس حتى يفيدوا منها، لا سيما في زمن العولمة حيث صار الخطر أن يعمل الشباب بحكم غيرهم وأن يتركوا حكم أنفسهم، أو على الأقل أن يتركوا لحكم بلدهم فرصاً متساوية مع حكم غيرهم من الأقوام، وأنها تأخذ الحكمة العاقلة طريق تفوقها على الحمقة المتسرفة.

أما بعد، فلو كانت لهؤلاء الأقوام سوى مزيتان لكفيتهاهما حكمة.

ضرب من «الديمقراطية» في «تولية» الإمام. ففي أمر تولي الشأن السياسي، وكما قال ذلك نور الدين السالمي، «ما كان معولهم على الأنساب بل على التقوى والفضل والعلم والورع»⁽¹⁾. ومناسبة كلامه هذا الذي لخص بها روح النظام السياسي الإمامي العُماني أنه لن يعثر على تفاصيل في نسب الإمام راشد بن الوليد. على أن من تخوم هذه الديمقراطية أنها كانت «ديمقراطية» لكنها «ديمقراطية عقدية» تدير شؤون الدنيا بالدين.

وضرب من «العدالة التوزيعية» الذي تحقق على نحو عجيب في هذه الحضارة. خذ مثلاً هذه التجربة التي تكاد من فرط ندرتها فريدة في تاريخ العالم الإسلامي؛ أعني تجربة «مصادرة» أموال الطفلة الجبابرة من ملوك آل نبهان، وتوزيع ما صودر من مال كانوا غصبوه أهل عُمان على الفقراء من العُمانيين بالعدل والإنصاف. نعم، عزيزي، هذا ما يشهد عليه من أرخوا للأئمة وطفلة عُمان. وقد عُرفت هذه المسألة باسم «حكم تغريق أموال آل نبهان» وجرت أيام الإمام

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان، الجزء الأول، ص 279.

من درر حكمهم:
واعلم أن العقل
عقلان: عقل مثمر
وعقل عقيم

عمر بن الخطاب الخروصي. ولعل هذا الفعل المنصف استغربه حتى بعض أئمة عمال اللاحقين، فاستشكلوه الاستشكل. فقد حدث أن سأل الإمام محمد بن إسماعيل الشيخ صالح بن عمر البهلوي (من آل مفلح) عن سبب حوز الإمام عمر بن الخطاب الخروصي لهذه الأموال، فكان مما أجاب به الشيخ ما نصه:

«...» سألني الإمام المعظم (...) محمد بن إسماعيل (...) عن أموال بني نبهان، وحوز المسلمين ممن تقدم من الأئمة، مثل عمر بن الخطاب بن محمد الخروصي، وكيف سبب حوزهم لها، وهل عندي حفظ بما تقدم من المسلمين، والأئمة الماضين، بماذا أحلوا، وبأي وجه دخلوا فيه؟ فأجبت بما حفظته ونظرته، في ورقة فيها خطوط المسلمين، وفي تلك الأيام علماء أحبار، وفقهاء أختار، إنهم نظروا في بني نبهان، أنهم أخذوا أموال المسلمين، وسفكوا دماءهم، وصار كل ما اقترفوه من الأموال والدماء في أموالهم، ونظروا أموالهم، فلم تكف جميع ما أصابوه من الأموال والدماء والقتل، وصاروا لم يعرفوا كل ذي حق حقه، ليعطوهم إياها، ولم يعرفوا لها أهلاً، فقالوا: إن كل شيء لم يعرف له أهل، فهو راجع إلى الفقراء، وأن الإمام أولى بكل شيء، مرجعه إلى الفقراء، من صدقات ووصايا، وغيرها، فهو أولى بذلك يجعله في عز دولة المسلمين (...)»⁽¹⁾.

صدر هذا الحكم التاريخي العجيب عشية الأربعاء لسبع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وثمانمائة سنة للهجرة. وتفصيل هذه الحادثة العجيبة الغريبة يوجد عند الإزكوي في حديثه عن الإمام عمر بن الخطاب الخروصي:

«...» ثم عقدوا للإمام عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان ابن صلت سنة خمس وثمانين وثمانمائة سنة، وهو الذي حاز أموال بني نبهان، وأطلقها لمن عنده من الشراة، وكاد ذا يد فيها، وأمر فيها بأوامره، وذلك باجتماع من المسلمين؛ وذلك أن المسلمين اجتمعوا فنظروا في (الدماء) التي سفكها آل نبهان، والأموال التي أخذوها واغتصبوها بغير حق، فوجدوها أكثر من قيمة أموالهم، وكان يومئذ القاضي أبا عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج، والإمام عمر بن الخطاب، فأقام القاضي محمد بن عمر بن أحمد بن مفرج وكيلاً لمن ظلمه آل نبهان من المسلمين من أهل عُمان، وأقام أحمد بن عمر بن أحمد بن مفرج وكيلاً لملوك آل نبهان، فقضى أحمد بن صالح بن محمد بن عمر أن جميع مال

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثاني، ص 30 - 31.

أل نبهان من أموال وأروض ونخيل وبيوت وأسلحة وأنية وغلل وتمر وسكر، وجميع ما لهم كائنا ما كان، من ماء، وبيوت، ودور، واطوى، وأثاث، وأمتعة، قضاءً ثابتاً للمظلومين. وقبل محمد بن عمر بن أحمد هذا القضاء للمظلومين من أهل عُمان، من غاب منهم أو حضر، وكبير منهم أو صغر، الذكور منهم والإناث، فصارت هذه الأموال بالقضاء الكائن الصحيح للمظلومين، وقد جهلوا معرفتهم ومعرفة حقوقهم، ولم يحيطوا له علماً، ولم يدركوا له قسماً، فصار كل مال لا يعرف قسمه مجهولون أربابه راجعاً إلى الفقراء، وكل مال راجع إلى الفقراء، فالإمام العدل عند وجوده أولى بقبضه وبصرفه في إعزاز دولة المسلمين والقيام بها، وكل من أصح حقه وأثبتته، فهو له من أموالهم، ويحاسب بالتحريية بما يصح له بقسطه إن أدرك ذلك، وإن لم تدرك التجربة ولم يحط بها، فذلك النصيب نصيب غير معلوم، وهو مجهول للفقراء، والإمام يقبض الأموال المغيبة وأموال الفقراء، وما لا رب له، ويجعله في إعزاز دولة المسلمين»⁽¹⁾.

من درر الحكمة

هاهنا أمر مهم: ما لا رب له من مال مصيره أن يوزع بين الفقراء. وفي هذا نظرية عدالة متطورة. لكن ما ينقصها أنها ظلت عدالة توزيعية «عقدية» تنغيا ما سمته «إعزاز دولة المسلمين».

أخيراً، لئن نحن كنا ما نفتأ ما نقرأ في مسارد إصدارات المكتبة العالمية: كتاب الحكمة الصينية، وكتاب الحكمة الهندية، وكتاب الحكمة الطاوية، وكتاب الحكمة البوذية، بل حتى كتاب الحكمة اليهودية أو التوراتية، فلم لا نقرأ: كتاب الحكمة العربية أو كتاب الحكمة الإسلامية؟ لا سيما وأنه ما كان العرب والمسلمون على الحكمة دخلاء، وإنما حكمتهم تضاهي حكمة بقية الأمم وتبز حكمة بعضها.

هي ذي التساؤلات التي راودتني وأنا أنظر في هذا التراث الحكمي والفلسفي العظيم والذي يكاد يكون نسياً منسياً. والحال أن ما أفترحه هو كتاب في الحكمة يكون ذخيرة لمواضيع العلم والحياة التي فكر فيها واعتبر الحكماء - وما أكثرهم!

على أنني أرى ألا تترك هذه الحكم كالسائبة، وإنما تنتظم هي في كتاب مؤلف من المحاور الأساسية التالية - وها أنذا أوردتها كما أورد عينات ونماذج لها توجد منبثة متفرقة في هذا الكتاب:

(1) سرحان بن سعيد الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، تحقيق: محمد حبيب صالح ومحمود بن مبارك السليمي، وزارة التراث والثقافة، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، الجزء السادس، ص 22 - 23.

1 - كتاب المعرفة: ويتناول آداب وسلوكيات الحكماء في أمر المعرفة: من آداب العلم إلى آداب الكلام وآداب الصمت مروراً بآداب المناظرة ومساعدة الطلبة وأخلاقيات المعرفة. وفيه مقاطع لطيفة وأخبار وحكايات طريفة. وفيه نماذج حكيمة من الحضّ على القراءة والمطالعة، والدعوة إلى اتخاذ العلم نبراساً وهدياً من المهد إلى اللحد. فضلاً عن نماذج لحكماء ظلوا يطالعون حتى بلغوا من العمر عتياً، ومنهم من طالع في السجن، حتى لما استفتي في أمر أرسل قوله الذي صار مثلاً: «تسجنوني وتستفتوني». ومنهم من تعلم بعد كبر وحذق العلم رداً على من جهّله، ومنهم من تعلق بحب الكتب تعلقاً ليس بعده تعلق، في تحفيز لشباب اليوم من العُمانيين على القراءة.

2 - كتاب «لا»: وفيه حديث عن مقاومة الحكماء وغيرهم لكل جبار عتيد من الحكام وأهل الشأن، وقول: «لا» مجلجلة بلا موارد ولا مراعاة.

3 - كتاب الفقر الإرادي: حيث الحديث عن الورع والزهد وطلب الكفاف والعفاف عند أبرز الحكماء.

4 - كتاب إيثار الخمول والتواضع: وفيه فصول من تواضع الحكماء، وكون الغمرة أحب إلى قلوبهم من الشهرة.

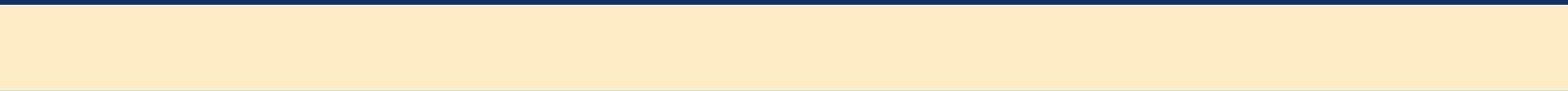
5 - كتاب الإحسان والإفضال: وهو كتاب في جود الحكماء بناء على مبدأ أن الوجود ينفعل بالوجود، وأن لسان الحكيم يقول تلقاء: أنا أفكر إذن أنا موجود، أنا أجود إذن أنا موجود، فإذا ما كفت عن الجود كفت عن الوجود، وبقي وجودي أشبه ما يكون باستخشاب أو استحجار.

6 - «كتاب الأثم»: حيث استعراض الحكمة التي تأتت لهؤلاء من تاريخ اضطهادها الطويل.

7 - و«كتاب المرأة»: حيث يتم استعراض نماذج باهرة من تاريخ نضال المرأة الحكيمة إلى جانب مؤنسها الرجل الحكيم.

8 - كتاب الحكم ومحاسن الكلم: وفيه طائفة من الأمثال الحكمية التي مدارها على أمور الحياة. هذه نماذج منها، وتكفي السنبلة من البيدر: «إنما الدين بالورع والحرص، والدنيا بالسياسة، والرجل بالعقل». وقولهم: «مثل من لم يلق الأخيـار كجرو لم تفتح له عين». وقولهم: «العمل في غير حينه ضعيف، والحين في غير عمله ضائع»... ومئات الأمثال الحكمية على هذه الشاكلة المنبثقة في تضاعيف وثنايا كتب السير والتراجم والتاريخ وغيرها.

9 - كتاب الغير: وفيه آداب ثرة في معاملة الإنسان، من حيث ما هو إنسان، للعالم المحيط به أكان نباتاً أم حيواناً أم بشراً: إذ عاملوا هم النبات خير معاملة، وعاملوا الحيوان بأرفق معاملة، وعاملوا الإنسان نعم المعاملة... وفيه قصص فريدة عن قواعد هذه المعاملة، بحيث ترتبط كل قاعدة معاملة بحكاية توضحها من التراث الحكمي الزاخر.



كتاب المعرفة

«مر زمان على جبل نفوسة فشا فيهم العلم، وكثرت العلماء، حتى لم يبق منهم منزل يرد مسألة إلى الآخر إلا من طريق الأدب، وقيل: إذا نزلت مسألة بلالوت سارت من منازلهم إلى تغرمين، فيردها بعضهم إلى بعض حتى تبلغ منازلهم كلها، ثم ترجع إلى المنزل الذي نزلت فيه فيجيبونها، وهذا من كثرة أدبهم وحسن سيرتهم».

أبو زكريا فيصل بن أبي مسوار

«ما أخاف أن يعذبني الله إلا على الجهل».

عبد الله بن الخير

«من حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه، فكأنما تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد».

أبو عمران موسى بن زكريا

«أفنى شبابه في القراءة، وبقيت عمره في الإقراء، وأفاد خلقاً كثيراً، واشتهر علمه في الآفاق».

أبو العباس الشماخي حاكياً

عن أبي الربيع سليمان بن يخلف المزماتي



كم حض حكماًؤنا على طلب العلم الحض، وكم نبهوا على أهمية العناية بطالب العلم. وإذ ذكر الوسياني أن: «من أخلاقهم جمع التلامذة والنظر في أمورهم والتفقد والرعاية لهم...»⁽¹⁾، ظهر أن السبب في ذلك أنهم عدوا المعرفة والعلم ما به يحيا الإنسان الحياة، وبالضد عدوا هم الجهل والجهالة ما به يموت الإنسان الموت، بل شر مية. ولذلك لطالما تَوَقَّوا الجهالة، ولطالما تَوَخَّوا المعرفة. أوليس ورد في أخبار أبي الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون، بعد أن لزم شيخه المدة، طلع إلى أهله من مزاته، فلما وصل إليهم قالوا: «لِمَ تركتنا؟ أمكث معنا كما فعل والدك، وتحيينا كما أحيانا، فإن لا غنى لنا عنك»، فأجابهم إلى ذلك⁽²⁾؟

وفي ترجمة أبي محمد التميمي أنه وهو في مرحلة طلب العلم والتلمذة، سار إلى لالت ليتعلم عند أبي الربيع سليمان بن هارون، فجاز على معلم الصبيان بتومات. قال: «أين تريد؟» قال: «لالت للتعلم». قال: «نعم ما طلبت، الدنيا ظلمة، والعلم فيها دليل، وركعتان من عالم خير من عبادة الجاهل ستين سنة، وعبادة الجاهل كسير حمار الطاحونة يدور ولا يبرح»⁽³⁾.

ويروى أن العلامة الفقيه سعيد بن أحمد بن غسان الخراسيني النزوي كان من كثرة شغفه بتقييد العلم وتدوينه أنه ما ترك سارية في بيته ولا جداراً إلا وكتب عليه، وأحياناً يكتب على الحجارة.

وقد اعتبروا أن منفعة المعرفة لا تسري في حياة المرء وحدها، وإنما شأنها شأن الصدقة الجارية تبقى تنفع حتى بعد مماته؛ وذلك بحيث يفيد الإنسان الناس العلم حياً وميتاً.

ومن سير أهل المغرب في المعرفة ما ذكره الدرجيني في ترجمة أبي العباس: «قال أبو محمد اجتاز بنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر فخرجنا معه مودعين، وكان فيما أورده من القول عند وداعنا أن قال: «إن أقل ما نزل من السماء إلى الأرض التوفيق، وقل ما يدعو به المرء إلا استجيب له»، ثم قال: «رحم الله أحمد بن محمد [بن العباس]، فقد كان رحمة لأهل مذهبنا [دعوتنا] حياً وميتاً، وذلك أنه كان في حياته بيت العلم يفيد به كل طالب وكل ذي حاجة،

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 661.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 791 - 792.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 265.

”
الجهل يميئ
والمعرفة تحيي
الدنيا ظلمة،
والعلم فيها دليل
“

ولما دنت وفاته أودع علومه الكتب، فصنف تصنيفات خمسة وعشرين كتاباً وكتاباً آخر تركه في الألواح»⁽¹⁾.

ولم يتوانوا عن القراءة ما أمكنهم ذلك، حتى في أماكن قد لا تخطر على بال أحد. هذا العلامة محمد ويسلان سجن في قضية، وما أن هي مرت أيام حتى شكاه أهل السجن لكونه يسهرهم بالدراسة والقراءة، فما كان من القيمين على الشأن إلا أن أخرجوه منه، وكان إذا سئل بعد ذلك عن السجن يقول: «يصلح لدراسة القرآن»⁽²⁾.

هذا وقد وضع الشيخ أبو زكريا فيصل بن أبي مسوار دستوراً لطلب العلم أو قل «أخلاقيات علم» أو «آداب علم»، تدعو، في مجملها، الطالب إلى أن «يتأدب بأحسن الأدب»، على اعتبار أن «الأخلاق الدنية شر من الذنوب»⁽³⁾، وأنه: «من طمع في الإسلام أن يدركه ومعه أخلاق السوء، كمن طمع أن يجعل الماء في الشبكة، وكمن طمع أن يأخذ شاردة وليس معه السلايق (جمع «سلوقي») يدورون بها، أو كمن ينظر بإحدى عينيه إلى السماء وبأخرى إلى الأرض في حالة واحدة، أو كمن يبسط يده إلى السماء أن يبلغها وهو في الأرض»⁽⁴⁾، وذلك بناء على قاعدة أن الحاجة إلى أدب الشيء أولى من تعلم الشيء كان قد أصلها بقوله: «ما أرى من يعلم هؤلاء الطلبة أدباً إلا أفضل ممن يعلمهم علم الحلال والحرام، لأن حاجتهم إلى الأدب أعظم وأشد، لأن الناس تركوه وجعلوا طريقته، نعوذ بالله من علم لا ينفع»⁽⁵⁾:

أولاً، على جهة السلب:

كلا، ما كان العلم للتباهي والزينة: «تعلموا العلم لتعملوا به، ولا تتعلموا لتباهوا به وتتزينوا به»⁽⁶⁾. الأصل في العلم الغمرة والكتمان لا الشهرة والإعلان،

(1) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 443، الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 371.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 314، وانظر: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الأول، ص 126.

(3) أبو الربيع سليمان بن يخلف الميزاتي: كتاب السير، تحقيق حاج سعيد مسعود، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، ص 40.

(4) المصدر نفسه، ص 40.

(5) أبو الربيع سليمان بن يخلف الميزاتي: كتاب السير، تحقيق حاج سعيد مسعود، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، ص 39.

(6) أبو الربيع سليمان بن يخلف الميزاتي: كتاب السير، تحقيق حاج سعيد مسعود، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، ص 31.

قيل: تعلموا العلم
لتعملوا به، ولا
تتعلموا لتباهوا به
وتتزينوا به

ما لم يطلب من العالم علمه: «على العالم أن يعيد الله بكتمان علمه، ما لم يحتج إليه، فإذا احتج إليه فلا يسعه كتمانها...»⁽¹⁾ وبالجملة، ما كان العلم لأمرين: «حب الدنيا» و«حب الثناء».

وما كان العلم للرواية. فقد ميز في حفظ العلم بين حفظ الرواية وحفظ الرعاية: «إحفظوا العلم حفظ رعاية (تفهم وتمكن) لا حفظ رواية»⁽²⁾.

وما كان العلم للتجبر به: «اتقوا الله في علمكم ولا تكونوا جبابرة العلم، ولا تتعلموا إلا لوجه الله والعمل به طلباً للنجاة، واحذروا أن تطلبوه لتستأكلوا به الأغنياء ولتستخدموا به الفقراء»⁽³⁾.

وما كان العلم لطلب الدنيا: طلب الدنيا بالدين. قال: «للدنيا طرق تطلب منها، وشر طريق تطلب منه طلبها بالدين»⁽⁴⁾، وقيل: «سيكون في آخر الزمان أقوام يود أحدهم أن لو لم يكن في الدنيا عالم غيره، ولا يُسأل إلا هو، وذلك طلباً للدنيا، وحرصاً عليها، وقلة الخوف منه على نفسه وطلب النجاة لها»⁽⁵⁾.

وما كان العلم لليقين المطلق. فقد قيل عن مضي: كانوا يمسون عن كثير من الجواب فيما يعلمون مخافة أن يقعوا في ما لا يعلمون، يدفعون الجواب فيرده كل واحد منهم إلى غيره، وما ذلك كله إلا من طلب السلامة لأنفسهم من الخطأ والزلل، حتى يود أحدهم أن لو كانت الدنيا كلها علماء حتى لا يحتاج إليه، طلباً للسلامة. وعن رجل ممن ينسب إليه العلم ممن مضي، قال بعض تلامذته: «لو كنا نكتب ما أجابنا، وما لم يجب لكان ما لم يجب أكثر مما أجابه لنا»⁽⁶⁾. وكان أبو زكريا يقول: «من كانت شيمته ورغبته في كل ما يُسأل عنه، ولا يقف [يعلق الجواب] في مسألته، سلك وادياً لا ينجو منه»⁽⁷⁾. ويحكي تلميذه: «وجلسنا عنده ذات يوم، فرغب قوم من جربة في السؤال وتحرصوا في الجواب، فكلما سألوه قال: «الله أعلم»، حتى قال من قال: «أسأل عن غيره هذه المسائل»، فقال من خلفهم: «بل ليسألوا عما بدا لهم،

احذروا أن تطلبوا العلم لتستأكلوا به الأغنياء ولتستخدموا به الفقراء

(1) المصدر نفسه، ص 32.

(2) المصدر نفسه، ص 31.

(3) المصدر نفسه، ص 33.

(4) المصدر نفسه، ص 34.

(5) المصدر نفسه، ص 36.

(6) المصدر نفسه، ص 37.

(7) المصدر نفسه، ص 37.

إنما يضر هذا ويشق عليه من كان يحب ألا يقف في شيء، وأن يكون مجيباً عن كل ما يُسأل عنه»⁽¹⁾. وسأله رجل أيضاً عن مسائل أراد جوابها، فكلما سأل عن مسألة قال الشيخ: الله أعلم، حتى أحس في كلامه ضيقاً، وتفكيراً في قلبه، فقال الشيخ: «إن المسألة ليس عندي فيها شيء، يا رجل: اتق الله، واعلم أنني لست في راحة، وأن هاتين الآيتين كالخناجر في العين: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: 159]، وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: 33]⁽²⁾.

فإذن إذ اهتموا هم بالمعرفة، فإنه ما كان العديد منهم ليدعيها، وإنما عمد بعضهم إلى تنسيب الأحكام واللجوء إلى قول: لا أدري، التي هي عند العديد من العلماء نصف العلم. فما كانوا يدعون الدراية في كل شيء شيء، لا ولا بكل شيء شيء، وإنما لم يتوانوا عن قول: لا أدري، ولم يكتفوا عن قول: لا أعلم.

هذا العلامة أبا نيهان جاعد بن خميس الخروصي، ذكر صاحب جواره العقد الثمين، أنه كان قد سأله سائل يوماً عن آيات الوضوء، فما كان منه إلا أن رد عليه: «الله أعلم، وأنا لا أدري ما في هذا من قول لأهل الحق». ورد على سائل آخر بالقول: «فانظر فيه إذا أتاك وابدل فيه مجهود النظر واعرضه على من يقدره من صحيح الأثر، فإن بان لك عدله فخذ به، وإلا فدعه إلى ما تعرفه حقاً من قول أهل البصر». وقال لآخر: «هكذا قيل»، ولآخر: «هكذا يبين لي».

في فضيلة: لا أدري

ويروى أن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي سئل عن مسائل، فأجاب عن بعضها، وأجاب عن الباقي بأني لا أدري، ثم استشهد بهذا البيت الشعري:

وكل امرئ يهوى التصدر في الورى ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

ومثله ما حدث للقاضي مدمان الهرطلي من جبل نفوسة، فقد كان قاضياً للإمام عبد الوهاب، وكان ممن يتوقف نسبية وشكاً. ومن توقفه أن استمسك رجل بأخر مدعياً أنه باع له بقرة لا أسنان للفك الأعلى من فيها، وسأل مدمان هل هذا من عيوبها. فقال: حتى أسأل. فشكوه إلى الإمام إذ استعمل عليهم من لا يعلم أن

(1) المصدر نفسه، ص 37.

(2) المصدر نفسه، ص 39.

ليس للبقرة الأسنان العليا - فقال الإمام: «كيف حكم؟» قالوا: «قال: حتى أسأل» قال: «إنما استعملته لتوقفه»⁽¹⁾.

وكانوا يقيمون للقضاة امتحاناً، ومثلما ألف ابن أبي الخير كتاب «امتحان الأطباء»، يمكن أن يؤلف كتاب بأكمله في «امتحان القضاة». إذ من شبيه هذه الحكاية ما أورده الوسياني في سيره من أنه: «ذكر أن أهل نفوسة أرادوا أن يستقضوا رجلاً، فأرادوا تجربته، فأرسلوا إليه رجلين، فاختما عنده، فقال أحدهما: «إن هذا باع لي ثوراً فوجدته لم تكن له الأسنان الفوقانية، فقلت: رده عليّ، فأبى لأنه عيب»، فقال له القاضي: «سأسأل أصحاب الثيران إن كان عيباً أم لا؟» قالوا: «لا يتقدم في ما لا يعلم»، فاستقضوه. ونظيرها هذه المرة على جهة السلب أنه ذكر أيضاً أنهم أرادوا تجربة آخر، فاصطحبوا حتى إذا طرقت أمامهم، فانتبهوا ووقفوا، فقالوا للرجل الذين يريدون استقضاه: «ما نأخذه من هذه الطرق؟» فقال لهم: «هذه»، والطريق غير معروفة ليست بجادة تُضِلُّ سريعاً، فقالوا: «هكذا يكون في حكمه، فتركوه»⁽²⁾.

وبالعكس من أخلاق العلم النسبية التي تتوقى الشهرة وتتوخى الغمرة، حتى أن الكثير من العلماء وقفوا على كثير من المسائل لم يجيبوا فيها شيئاً، فأمسكوا عن الجواب مخافة على أنفسهم⁽³⁾، وحتى أن العالم أبا نصر زار ابن يوسف النفستي لما حضرته الوفاة أخذ يبكي، قيل: «ما يبكيك؟»، قال: «خوفاً من الفتيا، قلّت دار من دور نفوسة لم تدخلها فتياي»⁽⁴⁾، يقوم العالم البهرج - ذاك الذي رأى البعض أنه: «قيل: سيكون في آخر الزمان أقوام يود أحدهم أن لو لم يكن في الدنيا عالم غيره، ولا يُسأل إلا هو، وذلك طلباً للدنيا، وحرصاً عليها، وقلة الخوف منه على نفسه وطلب النجاة لها»⁽⁵⁾ - بالإفتاء في كل شيء شيء، ويكاد يتورع العالم الحق في الإفتاء في كل شيء شيء.

ومنهم من تخوف من أن يذهب الهرم بيقظة عقله. إذ كان يؤثر عن أبي محمد بن عبد الله بن نوح أنه كان يقول بعد أن كُبر: «إن بعض العلماء يقول: إذا علم العالم من نفسه ضعف عقله، فلا يفتي. وأنا أخذ بهذا القول، وأترك الناس قبل أن يتركوني»⁽⁶⁾.

يذكر أن العالم
أبا نصر زار ابن
يوسف النفستي لما
حضرته الوفاة أخذ
يبكي، قيل: «ما
يبكيك؟»، قال:
«خوفاً من الفتيا،
قلّت دار من
دور نفوسة لم
تدخلها فتياي»

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 110.

(2) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 278.

(3) أبو الربيع سليمان بن يخلف الميزاتي: كتاب السير، ص 36.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 248.

(5) المصدر نفسه، ص 36.

(6) الشماخي، كتاب السير، ص 376. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 779.

ووجه من أوجه تعلق المعرفة بالنسبية، أنه وجد من التلاميذ من كان همه الأول السؤال ثم السؤال ثم السؤال، ما يفتأ يستفسر ويستفهم ويسأل، حتى ليكاد يذكرنا بالحكيم الشاعر إدموند جابيس الذي ألف كتاباً فريداً سماه «كتاب الأسئلة» وذكر فيه أنه لو سئل عن هويته لما زاد عن القول: هويتي هي السؤال، السؤال أنا وأنا السؤال، «اسمي سؤال». فكذا وجدنا من حكماننا أبا يوسف مجدول - من علماء نفوسة الجبل - الذي كان أيام التحصيل كثير السؤال لشيخه أبي محمد الدرفي، وما زال يفعل يستفهم ويسأل، حتى قال له شيخه مرة: ليس لك يا مجدول هم إلا السؤال⁽¹⁾.

من آداب التأليف: أمانة العزو

ولطالما نبهوا طلبتهم إلى ضرورة التحري وإلى أمانة عزو المنقولات إلى أصحابها - وهذه قيمة أكاديمية تعقد فيها اليوم المحاضرات. ومن قبيل ذلك ما وقع بين العلامة العُماني حمود بن حميد بن حمد الوافي وتلميذه الشيخ عبد الله بن عامر العيسري، روى التلميذ فقال: «سألت الشيخ حمود ذات يوم عن حكم صلاة الجمعة في الأمصار الممصرة؟ فأحالني إلى كتاب الشيخ خلفان بن جميل السيابي (فصل الخطاب، 103/1)، ثم عاد بعد فترة سألتني: ماذا وجدت؟ قلت له: الشيخ خلفان بن جميل يقول بأن صلاة الجمعة في الأمصار الممصرة تصح. فقال لي: هل قال هكذا؟ قلت: نعم. قال: هات الكتاب، ثم قرأت الجواب من كتاب الشيخ خلفان، حيث قال: لو وجدتتها تصلى في مكان لصليتها معهم. ثم قال لي الشيخ حمود: فرق كبير بين ما فهمته وبين الجواب المكتوب هنا. إياك يا ولدي والتصرف في النقل، قل الشيء كما وجدته. (أورده صاحب النمير).

ووضعوا شرائط لطلب العلم والصبر عليه. فقد ذكر الشيخ أحمد بن عبد الله الكندي، في مقدمة كتابه «التقريب» - وهو كتاب في النحو - ما يلي: «(...) أما بعد، فهذا كتاب التقريب، وسمته لمتعلمي النحو بغاية التهذيب، رجاء أن يكون أقرب مأخذاً، وأسهل في الفهم منفذاً؛ فليخلص النية طالبه في تحقيق العلوم، وينزهه عن دنس الإعجاب ومراء الخصوم (...). واعلم أن هذا من العلوم النظرية، يحتاج صاحبه إلى التفكير فيه، وإدامة النظر والتدبر لمعانيه. فقد قال بعض العلماء: يحتاج طالب العلم إلى حدة، ومدة، وقريحة، وشهوة، وتمامها في

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 290.

الخامسة إلى معلم ناصح. ولعمري إن من صحت له هذه الخصال، رُجي له الظفر والنجاح، وتم له الفوز والفلاح (...)»⁽¹⁾.

في آداب تعلم العلم وشرائط تحصيله

ووجد في إحدى أرجوزات الشيخ الفقيه سالم بن سعيد بن علي الصائفي العُماني - صاحب أرجوزة «دلالة الحيران» في الأديان والأحكام - هذان البيتان:

لا بد للعلم من ست لطالبه من فيلسوف ودود غير منان
ومن زمان ومن أمن يشايه ومن مكان وإمكان وإخوان

وقال غيره:

بتسع ينال العلم قوت وصحة وحرص وفهم ثاقب في التعلم
ودرس وحفظ للعلوم وهمة وشرخ شباب واجتهاد معلم⁽²⁾

في ناموس معاملة طلبة المعرفة

ووضعوا ناموساً أخلاقياً لمعاملة طلبة العلم والمعرفة:

وفي سيرة أبي محمد ويسلان بن يعقوب المزاتي (من علماء الطبقة الثامنة 350 - 400هـ)) ورد أنه بعد شباب أمضاه في حياة التطرح واللهو، استيقظ ضميره فجأة فلحق بتلامذة القرآن في أيام أبي القاسم يزيد بن مخلد، فابتدأ في قراءة القرآن على تكلف شأن التعلم على الكبر، وكان جهير الصوت، فمر به رجل فوجده يعالج من ذلك ما يعالجه المبتدئ، فقال له: يا ويسلان هلا رجعت إلى أهلك فلازمت الصلاح واصطناع المعروف؟ فإن ذلك أنفع لك وأجزى عنك، وكأنه أيأسه من التعلم، فسأه ذلك، فخرج من المسجد ولوحه في يده، وعبرته تخنقه، بل دموعه تسيل، فوجده رجل آخر على هذا الحال، فقال له: «ما شأنك يا ويسلان؟» فأخبره بما قال له الرجل، وأيأسه من روح الله، فقال له الرجل: «هات لوحك»، وكان قد رماه، فقال له: «إقرأ»، فقرأ، فقال له: «أي عالم يخرج منك يا ويسلان؟» فارتاح لقوله، ورجع إلى تعلم القرآن، حتى حفظه، ثم تعلم علم الكلام وحصل الأصول على شيخه أبي القاسم... فلما قضى ويسلان من هذا

(1) من أول مخطوطة كتاب «التقريب» في النحو [مكتبة السيد محمد بن أحمد بن سعود البوسعيدي، تحت رقم 601]، أورده سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان. الجزء الأول، ص 327.

(2) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان. الجزء الثالث، ص 215.

الفن وطهره، شاقته نفسه إلى تعلم الفروع، فاستأذن أمه في السفر، وألغز عليها في الاستيذان، فقال لها: «أتأذنين لي في الطلوع إلى الجبل؟»، فقالت: «نعم»، فذهبت هي إلى جبل بمقربة من منزلهم، وذهب هو إلى جبل نفوسة، فجعل يقرأ حتى حفظ في الفقه كتباً كثيرة. وكان في أثناء هذه المدة إذا وصله كتاب من تلقاء أهله رمى به في الكوة لا يقرأه، حتى قضى وطره من علم الفروع، وعقد النية على الرجوع إلى أهله، فقرأ الكتب، فوجد في الأول التعزية بأمه، ووجد في كل كتاب ما لو اطلع عليه لكان شاغلاً عما قصد إليه من الخير⁽¹⁾.

وكان عادة ما مكث في جبل نفوسة سبع سنين، فبلغ من العلوم ما قدر الله له، وجمع ديواناً كبيراً، وكان يجتهد في قراءته بعد رجوعه إلى أهله شتاءً وصيفاً. وكانوا يقولون له - إذا رأوه يقرأ كتبه في الشتاء - : «هذا زمان برد وقر وندی، أشفق على الكتب»، فيقول: «يأتي الصيف فيذبلون ويبيسون». وإذا أخذها في الصيف، قالوا: «هذا زمان صيف وحر»، فيقول: «يأتي الشتاء فيبردون ويمتدون»⁽²⁾.

وبلغوا في رياض النفس على طلب المعرفة منزلة قل أن تجد لها نظيراً، وبلغوا في ذلك الهوس بالمعرفة حد تعذيب النفس. فهذا العلامة الفقيه الشيخ حبيب بن سالم بن سعيد أمبوسعيدي العقري النزوي، كانت له همة عالية في طلب العلم. ومن ذلك أنه رأى النعاس يغالبه في الليل أثناء القراءة، وذلك لأنه لم يكن متعوداً على ذلك، فما كان منه إلا أن ربي شعيرات في مقدمة رأسه وربطها بجبل وربط طرف الحبل بالسقف بحيث إذا غالبه النعاس، وانحنى رأسه، شددت تلك الشعيرات عليه، فيستيقظ هو من نعاسه. وقد ظل على تلك الحالة حتى تعود السهر. وكان معه بعض التلامذة يقرأون معه، وقد قسمهم إلى مجموعات كلما تعبت مجموعة ذهب مجموعة لتستريح، جاءت أخرى لتتعلم. أما هو، فكان يواصل الليل بالنهار في القراءة، فعكف على ذلك سبع سنين، حتى وصلت إليه رئاسة العلماء في عصر الإمام بلعرب بن حمير. (ذكره صاحب النمير).

وشبيه هذه القصة يحكى أيضاً عن الشيخ المتكلم الحكيم أبي عمار عبد الكافي. فقد ذكر الدرجيني أنه أيام الطلب، فقال: ذكر شيوخنا أن أبا عمار لما عزم على طلب العلوم رأى أن أهم ما يقدمه إصلاح اللسان، ثم إصلاح الجنان بعلوم القوانين والبراهين، فهاجر إلى تونس فأقام فيها أعواماً يدرس الليل

(1) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 370 - 371. وانظر: الشماخي، كتاب السير، ص 349 - 350. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 780.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 782.

وبلغوا في رياض
النفس على طلب
المعرفة منزلة قل
أن تجد لها نظيراً،
وبلغوا في ذلك
الهوس بالمعرفة
حد تعذيب النفس

والنهار، ولا يحضر بياله ذكر الأهل والدار. والذي توخاه من قصده تونس شيئين: أحدهما: ملاقة من يشغل خاطره عن ذكر أهله، والثاني: أراد أن ينقطع عن اللسان البربري بالبعد عن مخاطبه به، والتدرب على لسان العربية بكثرة مخالطة من يخاطب به. وكان أبو عمار موسعاً عليه، فكانت تأتيه من بلده في كل عام ألف دينار وبطاقة، فيضع البطاقة في موضع، ويقسم الدنانير نصفين، فيدفع النصف إلى شيخه ويصرف النصف في نفقته وكسوته وشراء ما يحتاج إليه من الكتب، فلما كان عند عزمه على السفر وقد رأى أنه قضى حاجته من طلب العلوم التي اعتمدها هنالك أعلم شيخه بذلك، وأجمع على الارتحال، فأخذ في قراءة الكتب الواردة من بلده كتاباً بعد كتاب، فوجد في الكتاب الأول إعلماً بوفاة أحد أبويه، وفي الثاني وفاة الثاني، ووجد شواغل لا علم له بها، فأطلع على ذلك شيخه وأصحابه، فغزوه وانفصل إلى بلده⁽¹⁾.

القراءة في كل حال وعلى أي حال

وقد تعلموا في كل الظروف المواتية وغير المواتية.

قرؤوا في حال المرض والسقم مثلاً:

يروى عن العلامة محمد الرقيشي أنه عندما كان في عبري سقط وتأثر في ظهره من أثر ذلك السقوط، فلزم كتاب «شرح النيل» حتى أنهاه كله، وهو على تلك الحالة من المرض. (ذكره صاحب النمير).

وتعلموا في زمن الكتمان واشتداد الرقابة عليهم:

هؤلاء حملة العلم إلى المغرب الذين تتلمذوا على يد أبي عبيدة، يحكى أنهم لما بلغوه صافحهم وسألهم عن أحوالهم وما يريدون، فقالوا: «نطلب العلم، فأجابهم، فمكثوا عدة سنين. وكان في أيام استخفائه من بعض أمراء البصرة، وكان يقريهم في سرب، وعلى فمه سلسلة؛ فإذا أقبل أحد حُرِّكت فيسكتون، وإذا انصرف حركت، فيأخذون في القراءة»⁽²⁾. وهذا أبو الخليل صال كان يقول لطلبته: إئتوا المجالس يا كسلاء، فقد حضرها من حضرها ما بينه وبين قابس، وما بينه وبين فزان، حتى وقع قطاع الطرق عليه، فجرحوه سبعة عشر جرحاً، فدخل مغارة

(1) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 485 - 486.

(2) العباس بن أحمد بن سعيد الشماخي: كتاب السير، تحقيق: محمد حسن، سلسلة كلية العلوم الإنسانية،

المجلد 15، تونس، ص 24.

مكث فيها أربعين يوماً، ما أكل وما شرب إلا ما رأى في منامه أنه أطعم وسقي، فخرج وقد نظر إلى بدنه نظرة لم يرها قط، فظنوا أن الرجل هو أبو خليل⁽¹⁾.

وتعلموا في زمن القحط والجذب والغلاء:

ذكر أبو نوح أن اثنين وثلاثين عالماً مبروراً من شيوخ أهل الدعوة البادية تكلفوا بنوائب أهل الدعوة، فيهم الشيخ وشق... من مات منهم قام الآخرون بنوائب الحلقة، فماتوا كلهم إلا أبا عبيدة وشق، وذلك في ناحية إفريقية [تونس]، فأحسن أبو عبيدة القيام بالحلقة إلى ذات سنة ابتلوا فيها بالقحط والجذب والغلاء، فانتجع الناس مواضع الخصب، وبقي مع حلقتهم يكسر عليهم، فقالوا له: دعنا نمض حتى يفرج الله، فأبى وقال لهم: ما نحن إذاً بإخوة في الله، إذ الإخوان في الشدائد يعرفون، وعند الحوائج يمحسون؛ فكان ينفق عليهم حتى نفذت مطاميره، وكسحت أنادره، فشاووروه على الرجوع إلى بلادهم فأبى لهم من ذلك وقال: إنما الدنيا لا شيء منها ثبات إلا ما قدمنا لأخرتنا من أماننا. فعمد إلى الصامت يمتار لهم حتى فني، فطلعوا إليه فأبى وقال: الأعمال بالنيات، والنية إذا انقطعت اضمحل فعلها عند زوالها، فعمد إلى الحلي والمتاع والأثاث فيبيع ويمتار لهم، فكلموه فأبى من ذلك، وعمد إلى الحيوان فباعها، وكسرها عليهم، إلا ثوراً تركب عليه أمه، وآخر تركبه زوجته، فطلبوا إليه فقالوا له: نمضي الساعة يا شيخ لئلا تموت هزلاً، ونطلب فضل الله، ويأجرك الله على ما قاسيت وصبرت، فقال لهم: اصبروا هذه الليلة، فقام فدبح ثور زوجته، فطعموا وتنعموا وباتوا إلى وقت قيامهم في الليل، فرأوا الشيخ لا حراك له، فقالوا: دعوه يرقد حتى ينفجر الفجر، فدنوا إليه يوقظوه، فإذا هو بارد ميت، فجهزوه، فأرادوا أن يذهبوا، فقالت لهم أمه: اجلسوا إليه الليلة وتودعوه، فذبحت لهم ثورها...⁽²⁾.

وهذا أبو ذر أبان بن وسيم الويغوي، من علماء جبل نفوسة، ذكر في السير أنه أخذ العلم بعد أن كبر. والسبب الحامل له أنه مرض هو وأخ له صالح، فرقدا في بيت أبان عند بابه، وكان الناس يغشونهما زائرين، فيقولان لأبان: كيف حالك يا مسكين؟ فيجيب: إن عاش أبان جعل للدنيا جزاءها إن شاء الله. ثم يدخلون إلى أخيه أبي عبد الله فيحدثونه ويحفونه ويؤنسونه، ولا يقولون ذلك لأبان عند خروجهم، فقام من مرضه ذلك، واجتهد في طلب العلم، فتعلم عند أبي خليل الدرشلي. وكان

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 131. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 301.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 705 - 706.

يعمل شغله آخر النهار، ثم ينزل إلى درشل، فيجتهد ليلته، ثم إذا حضر مجلس الصبح طلع إلى ويفوا⁽¹⁾.

وخذ حالة أبي الخير توزيع الزواغي، لما اهتدى إلى طلب التعلم لنفسه، صادف في ذلك عنثاً كبيراً، كان منه كسر أصاب ضرره فاعوج نطقه، وكان لما أخذ في التعلم يضحك الطلبة عليه لعدم استقامة لسانه، وهو يقول: «علموني، واضحكوا»، وما زال مصابراً مجالداً دؤوباً على ذلك جلدأ متحملاً حتى تعلم القرآن، ثم العلم، حتى صار أفضل أهل زمانه⁽²⁾.

دروس في الإصرار على تحصيل المعرفة في زمن الخصاصة

وهاك حالة من من شدة حاجته تناوب على القراءة في الكتاب الواحد. وهو حال أبي القاسم يزيد بن مخلد وأبي خزر يغلا بن زفتان، وهما وسيانيان، وكان أبو القاسم غنياً ذا مال واسع، وكان أبو خزر يخدم ويكتسب على نفسه، وكانا يقرآن كتاباً واحداً، فإذا قام أبو خزر إلى بعض أشغاله، قرأ أبو القاسم، فإذا رجع، ابتدأ من المكان الذي ذهب عنده، فيقول أبو القاسم: لي مرتان، ولك مرة. وداما على هذا الحال حتى بلغا في العلوم مبلغاً عظيماً، فقعدا يقرآن العلوم والأدب وسير الصالحين، واشتهر أمرهما وعلا ذكرهما، وكان أبو القاسم ينفق على من يقرأ، فقالوا لأبيه: ابنك مجنون، يتعلم ويطعم ويعطي⁽³⁾.

ودونك الشيخ أبا الربيع ابن أبي هارون كانت عادته إذا صلى العشاء الآخرة، وأكمل ورده، جعل للطلبة المجلس هوناً من الليل، ثم ينصرف إلى داره، ومعه محمد بن زكريا البغطوري ومحمد بن يفون، فيقرأ عليه أحدهما حتى يفتر، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل؛ وذلك أن كتباً أته من فزان، وضعف عن النظر والقراءة بالكبر. ثم يقوم من المجلس مشتغلاً بصلاته، فإذا أذن وصلى صلاة الفجر، أخذ في القراءة حتى تطلع الشمس، ثم يجعل لهم المجلس، فإذا افترقوا جلس للقضاء بين الناس إلى الزوال، فيقوم فيشتغل بأمر الصلاة. ولذلك قال بعض: لا ندري متى ينام⁽⁴⁾.

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 136. وانظر أيضاً: أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 249 - 250.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 302.

(3) المصدر نفسه، ص 310 - 311.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 254.

النسخ في زمن الخصاصة

وذكر أن أبا غانم بشر بن غانم الخراساني جاز على جبل نفوسة متوجهاً من المشرق إلى تاهرت أيام عبد الوهاب، وقد رفع الديوان المعروف بالغانمية، فودعه عند عمروس، فطلبه إلى نسخته فأبى، فخالفه عمروس إليه فنسخه بنفسه، فكان في وقت نسخته إياه إذا وضع الكتاب الذي ينسخ منه أمامه، فيكتب منه حتى إذا لحقته الشمس فترفع له أخته الكتاب إلى الظل، فيتبعها وعينه في الكتاب، كما تتبع الشاة ولدها حرصاً على إحياء العلم والزيادة منه على ما رزقه الله منه وبلغه من نفعه إياه، حتى نسخ الكتاب جميعاً فردّه إلى موضعه، فجاء أبو غانم ليرفع الكتب وقت مضيه، فرأى نقطة حبر في واحد منها، فقال: أسرقت هذه؟ فقال له عمروس: نعم سماني سارق العلم، إخباراً ليس بأمر أن يسميه سارق العلم⁽¹⁾.

وقرؤوا في كل الظروف وحفظوا أوقاتهم عليهم فلم يضيعوها في ما لا ينفع. فقد ذكر عن أبي عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف أنه حكى عن ظروف تحصيله فقال: «كنا في إفريقية [تونس] في الحلقة، فخرجنا من حي إلى حي، فجاء السيل بين الحي الذي استقبلنا، والسيل الآخر بين الذي استدبرنا، فقعدنا بين السيلين نستغفر الله ونسبحه، ونجري بيننا المسائل، ونتنظر نضوب واحد منهما ونشوفه»⁽²⁾.

ويروى أن العلامة سعيد بن أحمد الكندي، وهو من أهل نزوى، طلع على الدنيا وهو يتيم ويستأجر الماء ويترك كتابه على الخب، فإذا رجع إلى الطوي نظر إلى مسألة وتحفظها. وكانت أجرة الرجل كل يوم بيستان صرف القرش يعتاش بهما. (نقلاً عن صاحب النمير).

وذكر عن ماكسن أنه كان لمراده ورغبته في العلم والزيادة منه والزيارة والانقياد لأهل الخير - وذلك بعد موت أبي عبد الله محمد بن بكر - إذا استقبله الشتاء، وفرغ من حرث ضيعته، طلع بحلقته إلى أبي سليمان داود بن إلياس بن يوسف، ويتعلم عنده إلى أن يسمع صيء البعوض، فينزل إلى بلده⁽³⁾.

ووجد البعض منهم في القراءة وتحصيل المعرفة السلوى من الفتن.

(1) أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 234 - 235. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 323.

(2) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 364.

(3) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 386.

كتاب السلوانات:
القراءة وسيلة
للسلوى.
القراءة لمحاربة
الضجر الحامل
على الانتحار

فهذا العلامة وارسفلايس بن مهدي يحكي أنه وقعت حرب بين أهل ويغوا بلده وأهل شروس سبعة أعوام، وأنه مكث طيلة هذه المدة في داره يدرس ديوان أبيه، ولا يُرى خارجاً إلا لحاجة الإنسان، ففاق في العلم⁽¹⁾.

ووجد بعضهم في العلم السلوى عن الرغبة في الانتحار. من ذلك ما يذكره ابن رزيق في فتحه المبين عن الشيخ الفقيه العالم الأعمى حبيب بن سالم النزوي:

أخبرني عنه الشيخ الثقة الفقيه القاضي مبارك بن عبد الله بن مبارك، الذي هو من أولاد حاتم النزوي، قال: كان الشيخ حبيب بن سالم رجلاً أعمى، معيلاً، فقيراً من المال والعلم، فأحاط به الهم، وبلغ في ضيقه الغاية من عدم المال وكثرة العيال، فأراد أن يقتل نفسه من الهم، فصعد ذات يوم إلى أعلى غرفة من غرف بيته، يريد أن يرمي نفسه إلى الأرض، فارتابت من شأنه أمة من إماءه، فجعلت كلما صعد درجة من درج بيته تصعد خلفه، فلما انتهى إلى أعلى غرفة من غرف بيته، يريد أن يرمي بنفسه منها إلى أرض جذبته بيديها إلى سطح تلك الغرفة، فوقع على السطح، وجعلت تقول له: بشئ الرأي الذي رأيته، والعزم الذي عزمت عليه، كأنك لم تشعر أن من قتل نفسه متمعداً فإن له نار جهنم خالداً فيها؛ فالأولى لك أن تصرف همتك في طلب العلم، لا في قتل نفسك، أتضيق بالعيال ذراعاك، ولكل آكلة مرعى، أو كما قالت.

قال: فلما سمع منها هذا الكلام قال: صدقت، وجزاك الله خيراً.

فصرف همته من ذلك الوقت في طلب العلم، قال: ولما فشا خبره إلى مشايخ نزوى وأغنيائهم تواتر نوالهم إليه، وضمنوا له بكل ما يحتاج إليه من المعيشة والكسوة له ولعياله قاطبة، وطيبوا نفسه، واعتذروا له من إغفالهم وقلة احتفالهم به، وأقاموا له مدرسة في بيته، وجلبوا إليه القراء، وأمروهم أن يقرأوا عليه كتب الفقه وغيرها.

قال: فجدد الشيخ في طلب العلم، ونبذ الضجر والاحتفال بغير العلم. قال: وكنت أنا واحداً من القراء الذين يقرؤون عليه الكتب. فكنا نقرأ عليه الكتب الفقهية نهاراً وليلاً، وكل واحد منا إذا انصرف عن صاحبه قعد الثاني مكانه يقرأ. هذا في النهار، وفي الليل كلما غلب واحداً منا عليه النوم نام، وقعد الآخر

كنا نقرأ عليه الكتب
الفقهية نهاراً وليلاً،
وكل واحد منا إذا
انصرف عن صاحبه
قعد الثاني مكانه
يقرأ. هذا في النهار،
وفي الليل كلما غلب
واحداً منا عليه النوم
نام، وقعد الآخر يقرأ
عليه إلى صلاة
الفجر. قال: وقد
علق هو حبلاً في
دعيمة تلك
المدرسة، فإذا غلب
عليه النوم تعلق
بذلك الحبل حتى
يسيطر عليه النوم

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 284.

يقرأ عليه إلى صلاة الفجر. قال: وقد علق هو حبلاً في دعيمة تلك المدرسة، فإذا غلب عليه النوم تعلق بذلك الحبل حتى يستطير عليه النوم.

قال: فما رقد في ليل ولا نهار إلى سبع سنين. قال: وأراد أن يوسع تلك المدرسة لما تكاثرت القراء وطلبة العلم فيها، فأمر بهدمها كي تصير فسيحة للقراءة والطلبة، فوجد هادموها السليط من السرج الموقدة فيها قد بلغ إلى أقصى أساس تلك المدرسة.

قال: وبعد سبع سنين من تعليمه صار أعلم أهل زمانه، وقصدته الوفود بالمسائل من كل بلدة من بلدان عُمان، وأجابهم بأحسن جواب.

قال: ومضينا معه ذات يوم من نزوى إلى منح، فرأينا في الطريق قبل وصولنا إلى منح جملة من الناس قادمين عليه بمسائل شتى، فقالوا له: إنا قاصدون إليك بمسائل، فتفضل علينا بالجواب.

قال: فلما سمع كلامهم جميعاً هبط من ظهر الدابة التي ركب عليها، وقال لنا: فليحضر كل واحد منكم دواة للجواب.

قال: كنا سبعة رجال، كنا تلامذته، فجعل كل واحد يقرأ له سؤالاً من السائلين، ويقول له: أكتب الجواب كذا وكذا، فنكتب ما يلي علينا إلى أن تم جوابه للسائلين، ولم يقل لواحد منا: أعد عليّ القراءة إلا في مسألة واحدة، أعاد بعضنا عليه قراءتها، فقال له بعد ذلك: أكتب كذا وكذا وبالله التوفيق. فكان عدد المسائل أربعة، مسألة كل واحدة لا تشبه الثانية، وما وقع منه في واحدة منها غلط قط⁽¹⁾.

وكان الأمر عندهم في العلم بالتطور، كل يوم يصبح العلم في شأن. ومن لم يتقدم في العلم كان يعد في خسران، ومن لم يبارح مكانه كان يعد أيضاً في خسران. قال العلامة الفقيه راشد بن سيف بن سعيد اللمكي الرستاقى: «أخذت العلم عن الشيخ ماجد بن خميس العبري، فصرت أوسع منه علماً، وأخذ عني العلم الشيخ عبد الله بن حميد السالمي، فصار أوسع مني علماً». (نقلاً عن محمد بن حميد السالمي الشيبية، «نهضة الأعيان»).

(1) حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص 128 - 129.

كان الأمر عندهم
في العلم بالتطور،
كل يوم يصبح العلم
في شأن. ومن لم
يتقدم في العلم
كان يعد في خسران،
ومن لم يبارح مكانه
كان يعد أيضاً
في خسران

ووضعوا آداباً لإعارة الكتب وإعطائها، منها ما يُحمد ومنها ما لا يحمد. قال أبو عمران: «إن الشيوخ لا يعطون الكتاب إلا لمن ليس يجعله فيه (حتى لا ينساه وينسى قراءته)، ولا يعطى لمن لم تكن له فيه رغبة (لا قراءة لمن له زهادة في القراءة)، ولا لمن لم يعلم منزلته (لا قراءة لمن لا يعرف قيمة ما يقرأ)، ولا لمن لا يقوم به (القيام بالكتاب شرط قراءته)، ولا لأهل الخلاف (وهذا أمر مُشكّل، ولعله يعود إلى مخافة الدس من لدن المخالفين، وإلا فإن الأمر لا يليق)، ولا لمن يضيعه، ولا لمن لا يعرف»⁽¹⁾. وكان الشيخ أبو عبد الله يحذر من تضييع الكتب، وترك رجل طلب الكتب إليه، فقال أبو عبد الله: «صرت يا فلان مثل اللبن الرائب، إما وقع بأثره على وجه الشارب، وإما تباطأ وحبس وعسر»⁽²⁾.

حكايات في صبر الأساتذة على التلامذة

وحكى أبو عمران قال: «طلبت مصحف تفسير عند أبي عبد الله، فقال لي: هات رهناً، فقلت له: ليس معي إلا إزارى هذا، وكان جيداً، فدفعته له. فلما رأني سمحت به، قال لي: من تكون؟ فلويت عن جوابه، فلم يدعني حتى أخبرته، فقال لي: إرفع إزارك وارفع المصحف»⁽³⁾.

ومثلما صبر الطلبة على التعلم، صبر الأساتذة على الطلبة:

«وأما الشيخ ماكسن، فقد أصيب في بصره، وهو ابن سبعة أعوام، وقيل: سبعة أيام. فجاءت أمه إلى أم المعز بن باديس، فأعلمتها بما أصاب ابنها. فقالت لها: رديه في المكتب، فإنه سيستفيد لما رأته من حدة فكره وحضور ذهنه وفهمه وذكائه. ففعلت، وحفظ القرآن تلقيناً في أسرع وقت. فحضر حلقة أبي محمد ويسلان بجزيرة، فكان أذكى وأنجب تلميذ حضرها، إلا أنه حاد المزاج، سريع الغضب. فشكاه الطلبة إلى الشيخ، وابتغوا منه أن يطرده، فأبى لما تفرس فيه من الفهم والخير، وتأخى هو والشيخ سليمان بن يخلف، وكان يقرأ عليه الكتاب ويردده حتى يحفظ، وتصادقا»⁽⁴⁾.

وصبر كبير الطلبة على صغارهم. فقد ذكر الشيخ يحيى بن جعفر أنه رقد ذات

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 692 - 693.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 839.

(3) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 693.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 398 - 399. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 379 - 380.

والدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 430.

ليلة في الغار مع التلامذة، فسمع نشغ [شهيق شوق] باك بيكي ويشهق. قال: فعرفت صوته؛ فإذا هو من أصاغر التلامذة. فلما أصبحنا سألته عن بكائه، فمأطني، فاستقصيت عنه في السؤال، فقال لي: «وما لي لا أبكي وقد اجتمع العزاب في ندائهم، وتناصحوا وتواددوا، فلم يذكرني أحد منهم. وقد كان فلان قبل هذا لا يدع نصحي، ولا تذكرني غاية، فلما مضى عدت من ينصحي، فبكيت من أجل ذلك». وقد اهتم هذا لنفسه، وحيي قلبه، وهو يوسف والد عيسى المديوني⁽¹⁾.

وشجعوا المرأة على القراءة، وقدروا ظروفها وأوضاعها.

الجمع بين فضيلة العلم وفضيلة العمل

هذا الفقيه الفرستائي أبو حسان خيران بن ملال، كانت عادته التنقل في المنازل رغبة في إحياء الدين وتقوية الضعفاء وتعليم الجهال وتنبيه الغافلين. وربما مكث في ذلك زماناً لا يرجع إلى أهله. وكانت تحضر العجائز والنساء مجالسه، ويحملن الصوف كي يتعلمن الغزل، فتهاهن عن فعل شغل الدنيا في مجالس العلم، فتأخرن، فرخص لهن رغبة في إتيانهن (...)⁽²⁾.

وهذا أبو يحيى الفرستائي لما أراد قراءة العلم أتى ماطوس بن ماطوس في شروس، ولم يجد مسكناً على كبر البلد. فأرسل ما قال مثلاً: «ما أوسع شروس، وما أضيقتها!» قال له ابن ماطوس: «أدلك على من عرفه الناس تزاحموا على بابيه كباب أبي عبيدة مسلم بالبصرة»، يعني أبا هارون الجلالمي، فرجع وتعلم عنده. وكلفه إخوته أن يعمل معهم الشغل. قال: أي شغل ثقل عليكم؟ قالوا: مؤنة جملين. فأخذهما وجعلهما في مغارة في طريقه وسد عليهما إلا موضع يرمي لهما منه ما يأكلان. وكان ينزع الحشيش في غدوه ورواحه إلى المجلس ويرمي لهما، فلما أراد إخراجهما أخرجهما بعد هدم من كثرة سمنهما⁽³⁾.

من آداب الأستاذية إكرام الطلاب

كان عالم من علمائهم يقول: «منزلة التلامذة كشجرة الخروب»؛ يعني أنه لا ينبت حول الخروب نبات، فإن نبت كان ضعيفاً، لأن الخروب يشتف، وكذلك ما كان حول منزل التلامذة، فإنه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة،

(1) الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 821.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 259.

(3) المصدر نفسه، ص 261.

فجهدهم مكابرتهم، وإلطافهم، والقيام بمؤونتهم. ويضيف الدرجيني: وكأني به رحمة الله عليه يخاطب بذلك أهله، وحشمه، ليكون لهم من الاهتمام والاهتبال بأمورهم، والقيام بحقوقهم، ما لا يكون عند غيرهم من ذلك، فيقتفون آثاره، ولا يستعظمون ما ينفقون في جانب التلامذة، وما يخرج من مصالحتهم⁽¹⁾. وأورد الوسياني كلام الشيخ: «منزل التلامذة كشجرة الخرنوب»؛ وعلق عليه: يعني أن الخرنوب يأكل ما حوله من الأرض، ويضعفها ويسفها، حتى لا يشقها شيء من النباتات إلا جهداً. ويورد قول الشيخ: «إن كان ليأتيني أحد فلا أقدر على عشائه إلا جهداً، ثم يقول لي: هل شيء أرجع إليه؟»⁽²⁾، ويضيف الدرجيني: وكان رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدراهم، ويجعل الدراهم في القراطيس، والصرر، ثم يعلقها في ألواح التلامذة، وربما يجعلها في أوعية دفاترهم، وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه، وهم لا يشعرون؛ وكل ذلك منه رغبة في كتمان الصدقة، فلما مات أبو زكريا رحمة الله عليه انقطع عن التلامذة ما كانوا يعتادونه من ذلك، فعملوا أنه إنما كان يفعل ذلك أبو زكرياء، وتحققوا ذلك⁽³⁾.

ومنه كذلك ما ذكر عن الشيخ أبي سهل البشر بن محمد التندنميري من أنه كان إذا دخل رمضان أعطى طلبته وعزابته تمر جزمة يفطرون عليها، وكان يعطيهم صرر الدراهم من زكاته⁽⁴⁾. وكان أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي ممن وسع الله عليه في كثرة العلم والمال والتقى وسماحة النفس وسخاوة القلب. كانت عنده كثرة التلاميذ يعلمهم ويطعمهم ويكسوهم من خالص ماله. فإذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها دفء، وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف وادخر الأخرى...⁽⁵⁾.

وقد ذكر البطاشي في إتحافه أن العلامة ابن بركة كان غنياً موسراً، ونقل ما يلي: قيل: وإذا أراد أن يتفقد أمواله في البلد، وهي البساتين من النخل والشجر، يركب على فرس، ولذلك كانت مدرسته تضم كثيراً من طلاب العلم، من عُمان ومن خارجها، وهم بعض أصحابنا المغاربة، الذين جاؤوا لأخذ العلم عنه؛ قيل: ولشدة طلبهم للعلم، ولئلا يشغلهم شاغل عنه، أنه كانت تأتيهم الرسائل من أقاربهم وذويهم، فلا يفتح أحدهم رسالته، خشية أن يجد فيها ما يشغل باله

(1) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 363 - 364.

(2) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 300.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 341. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 300.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 294.

(5) المصدر نفسه، ص 388. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات المشائخ، الجزء الثاني، ص 418.

ويكدر قلبه، ولما حان وقت رحيلهم فتحوا رسائلهم، ووجدوا فيها ما كان من أخبار سارة أو غير سارة⁽¹⁾.

والشيء بالشيء يذكر، فقد ذكر عن الشيخ أبي علي الحسن بن أحمد النزوي - وهو من علماء القرن السادس بعمان - أنه بنى مدرسة على نفقته الخاصة لطلاب العلم، وتصدر للتدريس بها؛ وحدث أن أراد بعض إخوانه مساعدته على ما ينفقه على المدرسة والتلاميذ وزيت المصايح التي تُسَرَج بالليل، فامتنع من قبول ذلك، وقال: «ما دام تؤخذ مني النخلة الواحدة من اللالية بألف درهم، فلا حاجة لي إلى معونة أحد»⁽²⁾.

ويدخل في هذا الباب أيضاً ما ذكر عن العلامة أبي الحر من أن شاباً كان يأتيه ويلزم مجلسه، ثم فقده، فأتى إلى والدته، فسألها عنه، فقالت: يا أبا الحر قد والله أخذ في السفه والبطالة، وما يأتينا إلا من الليل إلى الليل، [ولا يستيقظ إلا في] نصف النهار، وقد والله ذهب ما في يده، ولم يستتر بشيء، قال: فقال لها أبو الحر إذا جئت وهو هنا فأذني لي ولا تحبسيني على الباب، قال: فلما كان نصف النهار أتى أبو الحر ومعه ستة أثواب وثلاثمائة درهم حتى وقف على الباب، فاستأذنت فأذنت له العجوز، فدخل فلما بالفتى في ناحية من البيت في خلق له، قال: وأقبل عليه أبو الحر، ثم قال له: ما أرى منعك عن أن تأتينا إلا العري ونحن أسأنا في أمرك، فاعلم أنا لا نعود إلى مثلها، فخذ هذه الأثواب فاكتس منها بثوبين، ولوالدتك ثوبين، ولأختك ثوبين، وهذه الدراهم فأنفقها على نفسك، ثم خرج أبو الحر، قال: فرجع الفتى إلى أحسن ما كان وحسنت حاله، فلم يزل مع أبي الحر حتى قتل يوم مكة⁽³⁾.

ومن قبيله ما حكي في سيرة الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي من أنه حين أراد طائفة من الطلاب العودة إلى أوطانهم معتقدين أنهم أخذوا من المعرفة ما فيه الكفاية، وأنهم يستطيعون الاعتماد على ما في بطون الكتب لاستكمال معارفهم، لم يرض لهم الشيخ أبو الربيع بذلك، وأوصى العلامة أبا بكر أن يقول لهم: «إعلموا أنكم إن رجعتم على هذه الحال إلى أهلكم، فأنتم كمن ترك الإسلام عمداً»، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه ليس أعنف من هذه العبارة توبيخاً على من يرضى بالأقل وبالدون، أو يمتلكه الغرور أو العجب، فيحسب أنه قد ملك العدة المعرفية الكافية التي توصله إلى الغاية المنشودة، وإنما شأن الطالب أن يجدد معرفته كل يوم، وأن يكملها التكملة في كل مناسبة...

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 295.

(2) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 321.

(3) الدرجيني، طبقات المشائخ، الجزء الثاني، ص 271.

لقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه ليس أعنف من هذه العبارة توبيخاً على من يرضى بالأقل وبالدون، أو يمتلكه الغرور أو العجب، فيحسب أنه قد ملك العدة المعرفية الكافية التي توصله إلى الغاية المنشودة، وإنما شأن الطالب أن يجدد معرفته كل يوم، وأن يكملها التكملة في كل مناسبة...

ويلحق بهذا، ما ذكر في سيرة هذا الشيخ نفسه من أن طلبته ألحوا عليه في تأليف ما يمليه عليهم، وقد ألحوا في الطلب حتى قبل، فأخذ كبير تلامذته ألواحاً فافترقوا على تأليفه، فإذا قام من مجلسه، وقد نظم لهم فنوناً من العلم، يؤلفون كل ما جاوز في مجلسه حسبما سمعوا منه، فلما استفاضوا كثيراً من مجالسه، وقد ألفوا ألواحاً كثيرة، أتوا بها فعرضوها عليه، فطائفة منهم أسقط ألواحاً كلها، وطائفة أسقط كثيراً منها، وطائفة أثبتها، ثم عرضوها عليه مرة بعد مرة، ومكثوا زمناً يعرضون عليه الألواح، ينقص ويزيد منها، حتى حققها وأمر بتدوينها، فكانا دفترين يقال لأحدهما: الأول، وللثاني: الثاني⁽¹⁾.

وكانوا شديدي الحظ على تعلم المعرفة لاقوا من أجلها ما لاقوا من عنت. فهذا عالم نفوسة أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوري كان يسير في كل ليلة من بغطورة، وبينها وبين ويغوا الذي يقصده مسافة بعيدة، فيحضر مجلس الليل، ثم يرجع إلى بغطورة، ثم يرجع ويغوا في ليلته، فيصلي مع أبان. وحكي أن التلامذة قالت له وقد بلغ من العمر عتياً: أنكتب عنك ما سمعنا؟ قال: اكتبوا ولو بأقلام النحاس، صُمّت أذن! إني نسيت ما سمعت منذ أربع سنين⁽²⁾.

وهذا أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي، كان في طلبه يكابد سوء المعيشة، وصبر حتى كاد لا يجد، فصار يأكل القطف والرسا، وهما شجرتان معروفتان. وكان خرج من أهله من بلدة أبدلان، من نفوسة، وأخذ في الطريق، فدخل وارجلان وليس عليه إلا خرق، ولم يعرفه أحد، ولم يعرف أحداً. وصادف رمضان، فكان يتبع الطلبة للكرامات التي تصنع لهم، فإذا دخل الطلبة، رده صاحب الدار إنكاراً للباسه وهيئته وعدم معرفته. فاجتمع عليه لباس الجوع والبرد حتى ورم رأسه وتسوخ فيه الأصبع. فلما رأى ذلك رجع إلى الصبر، وحبس نفسه في المسجد، وتوكل على الله. وابتدر الناس إلى الطلبة يحملونهم، وكثر الحمل. وأرسل واحد ابنه، فلم يجد من يحمل. ووجده لازم الفراش، فدعاه، فقال: لست ببغيتك، فرجع إلى أبيه، فقال: لم أجد إلا رجلاً ليس بعزابي قد اضطجع. ومن رغبته في إفطار الصائم قال: إيت به، وما قضى الله به من الفرج.

فرجع إليه ودعاه. قال: لست من تطلب، وقد ضعف صوته، فرجع الولد، وأخبر أباه بحالته وامتناعه، فقام إليه فجلبه إلى داره بنفسه... وجعل الرجل يكرهه على الأكل حتى شبع.

(1) أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي: السير، ص 14 - 15.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 161.

قال: هل لك عريف؟ قال: لا، فحدثه بقصته من أولها إلى آخرها. فقال: أنا عريفك. وتكفل له بجميع ما يحتاج، فأعطاه كساء من حينه...⁽¹⁾.

ومعنى «العريف» هذا أوضحه الوسياني بالقول: «ومن أخلاقهم العرائف التي تعمل معاش التلامذة، ويجعل عليها عريفاً من أهل البلد، يتفقدونها ويصلونها كل شهر مقداراً معلوماً، ومن قصّر في عريفه من أهل البلد لآمه أهل البلد»⁽²⁾.

وورد في سيرة أبي مسور بن يجين اليراسني وكان أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل، وكان تعلمه بجبل نفوسة، قد كابد من ضيق العيش في صبر وكتمان ما لم يكابده غيره، كان ربما أخذ شعيراً فطلب من الصبيان من يقلبه له، فيقتات به. فإن لم يجد من يقلبه صره في طرف ثوبه، ثم رشه بالماء حتى يبتل، فيقتات به، وكان يأوي إلى خربة قرية فيأكل فيها ذلك الشعير في خفاء، لئلا يطلع على حاله أحد. ومكث على هذا حيناً من الدهر لم يفتن به أحد، وكان إذا جاء إلى مجلس المشائخ قعد في آخر المجلس لحدثه سنه، فيلازم الجلوس والناس يقومون، فكلما قام أحد ممن بينه وبين الشيخ تقدم هو، حتى إذا لم يبق أحد بينه وبين الشيخ، فيصير بين يديه، فلا يزال يسأله حتى يقوم من المجلس، فلم يزل كذلك إلى أن كان ذات يوم بمجلس مع الشيخ، وقد انصرف الناس فلم يبق معهما ثالث، فجعل يسأله كالعادة، حتى هم الشيخ بالقيام، فقام أبو مسور لقيامه، وكان الشعير مصوراً في طرف ثوبه، فانحلت عقدة الصرة وتبدد الشعير على الحصير، فنادى الشيخ: «يا معشر نفوسة أما ترفعون من رفعه الله؟» فجاءت جماعة شيوخ سمعوا نداءه مسارعين وكل منهم مشفق أن يسبقه الآخر إلى البركة التي دعاهم إليها الشيخ، فتنازعا فيها إليه. وتسارعوا حتى آثروا أحدهم بأن يكون متكفلاً بأبي مسور، فيقوم بمؤونته. فلما كفي مؤونة المعيشة تفرغ للطلب، فضاعف الاجتهاد ولازم القراءة حتى حصل من العلم ما قدر له»⁽³⁾.

وما منعهم طلب المعاش من تحصيل العلم، لا ولا عاقهم عن نشدانه. فقد ذكر عن أبي موسى عيسى بن السمع الزواغي من علماء جربة من الطبقة السابعة (300 - 350هـ/912 - 961م) أنه قال: «خرجنا عن هؤلاء - يعني أهله

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 389 - 390. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 668 - 669.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 695.

(3) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، ص 157 - 158.

وقومه - وتركناهم أصحاب شياهم وبقرات، وتعلمنا العلم ورجعنا، وسعينا مثل سعيهم وبقراتهم»⁽¹⁾.

وكانت العصامية شعار العديد منهم، ومن ذاك ما ذكره الشماخي عن العلامة عمر بن يمتكن: «ويقال: إن عمر بن يمتكن إنما تعلم القرآن بطريق مغمداً، يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق، فيكتب عنهم لوحة من القرآن، وينصرف، فإذا حفظه رجع إلى المحجة [الطريق]، فيكتب من المارة والرفاق، كذلك دأبه حفظ القرآن، وتعلم العلم...»⁽²⁾

وما تعلق الأمر فحسب بإحسان البعض إلى الطلبة، وإنما كان الطلبة يحسنون إلى بعضهم البعض، وقد ذكر الوسياني هذا في قوله: «وكثير من التلامذة يحمل بعضهم مؤنة بعض في التعليم والتأديب والرياضة والإطعام والنصيحة»⁽³⁾.

والمعرفة متطلبة أشد ما يكون التطلب. فهي تقتضي الصبر أشد صبر يكون. ومن الصبر ألوان. أولها الصبر على من نتعلم منه.

فقد نقل عن أحد أعظم شيوخ عُمان المفكر الفقيه أبي محمد ابن بركة. وقد ذكر عنه أنه - أيام الطلب - كان يتردد إلى الفقيه العلامة أبي مالك ابن غسان الصلاني، طالباً للتعلم منه، والشيخ يدافعه المدافعة، والتلميذ صابر أشد المصابرة، فلما تصور للشيخ رغبة التلميذ الأكيدة في التحصيل، ولما آنس منه صدق إرادته في طلبه وسعيه، أقبل عليه فعلمه وأكرمه⁽⁴⁾.

وعلى النقيض من هذه الحادثة، وجد من فقهاء عُمان من يحبب التعلم إلى غير مهتم بالتعلم. ففي ترجمة العالم الفقيه سعيد بن أحمد بن سعيد الكندي (ت 1206هـ/1791م) نجد ما يشي بعنايته الفائقة بالبحث عن التلامذة من ذوي الفطر الفائقة. إذ يحكى أن الشيخ أبا النبهان كان في أول أمره غير جاد في طلب العلم، وكان مشغولاً بالقنص، فمر يوماً على الشيخ سعيد، فتوسم الشيخ فيه مخاييل النجابة، وقال في نفسه: إن هذا الفتى سيكون عالماً، ثم قال له: عندي تفق - أي بندقية - لا يخطئ، أريد أن أهديه لك، فوعده أن يأتيه في وقت آخر.

(1) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 314. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 367.

(2) العباس بن أحمد بن سعيد الشماخي: كتاب السير، تحقيق: محمد حسن، سلسلة كلية العلوم الإنسانية، المجلد 15، تونس، ص 48.

(3) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 670.

(4) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 295.

فلما جاءه أخرج له كتاب «الاستقامة»، وقال له: أنت خلقت لهذا لا للقنص. وقد أكب الطالب على قراءة الكتاب، وقراءة غيره من المصنفات، حتى صار علامة عصره في عُمان، وموثلاً للفتوى. أكثر من هذا، استحال هو أستاذاً لشيخه المذكور...⁽¹⁾.

ويذكر أحد طلاب الشيخ حمد بن عبيد السلمي بأنه سهر معه ذات ليلة يقرأ له كتاباً من كتب القوم، فكان الشيخ من شدة اهتمامه بطلب العلم يجلس الساعات على هيئة واحدة لا يحرك ساكناً ويعلق أحياناً على الكتاب، وكان تلاميذه يغيرون جلستهم بين الفينة والأخرى. (مما أورده صاحب النمير).

وكان الكثير من ملوكهم وأئمتهم - حتى الجبابرة منهم - من رعاة العلم والعلماء. فقد كان قيس بن عزان ابن الإمام أحمد البوسعيدي يحب طلبه العلم وينفق عليهم ويقربهم، وكان عنده كثير من العلماء والمتعلمين من أهل الباطنة حتى غرفة الصلاة في حصن الرستاق وهي غرفة الاستقبال لا تجد فيها غالباً إلا ناسخاً أو مملياً أو مصححاً أو مدرساً أو مكرراً، وكان يجلس معهم إذا ارتفع من مجلسه العمومي، فيقدم لهم من كل ما يوجد من طرف الفواكه من السوق كل شيء في أوانه ترغيباً لهم ومحبة. (ذكره صاحب النمير).

وقلما تجد في تراثنا العربي من جعل من مكتبته وكتبه موضوعاً لمدح شعره. ويروى عن العلامة الفقيه خلف بن سنان بن خلفان الغافري أحد قضاة الإمام سلطان بن سيف اليعربي أن خزانته حوت من الكتب المخطوطة ما لم تحوه مكتبة بعمان. فقد جمع سبعين وثلاثمائة وتسعة آلاف كتاب. ومدحها بقوله:

لنا كتب في كل فن كأنها	جنان بها من كل ما تشتهي النفس
جرى حبها مني ومن كل عالم	ذكي الحجى والفهم حيث جرى النفس
فلا أبتغي ما عشت خلاً مؤانساً	سواها فنعم الخل لي وهي الأانس
ولست أرجى أن يفوز بمثلها	على غابر الأيام جن ولا إنس
ثلاث مئين ثم سبعون عدها	وتسعة آلاف لها ثمن بخس
ولا عيب فيها غير أن زمانها	لقلة من يعنى بها زمن نحس
هي الشمس والكتب الكريمة أنجم	وكيف تكون الزهر إن طلع الشمس
بها ذل لي صعب العلوم وأذعنت	جوامحه وهي الممانعة الشمس

(1) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 244.

فكم مشكلات مبهمات عويصة
هي الكنز الإنفاق منه بناقص
وهيهات بعدي أن تباع وتشترى
ولكنها وقف على كل مسلم
تجلى إليها نورها فانجلي اللبس
هي الفخر لا العيش المدغفل واللبس
كما يشتري من ربه العير والعنس
فلا غافر فيها يخص ولا عبس

وروي أن العلامة الزاهد علي بن سعيد الرمحي العيني الرستاقى كان كثيراً
ما يردد أمام أقرانه وطلبته هذين البيتين:

ومحبرة تجالسني نهاري
وصبة كاغد في البت عندي
أحب إليّ من أضي صديق
أحب إليّ من حملي دقيق

وقال الشيخ العلامة سعيد بن خلفان الخليلى يخاطب كتاباً له:

أيا طرس ما أبقاك بعد فنى يد
لعل الليالى سالمتك خطوبها
رُقِمَتَ بها وهي الهشيمة في القبر
وأى يد قد سالمتها يد الدهر

وكان العلامة عبد الله بن عمر بن زياد البهلوي مغرماً بالكتب، عاشقاً لها،
حتى أنه كان يفكر في المصير الذي ستؤول إليه كتبه بعد حياته، فيقول:

لهضي على كتب بعدي أخلفها
جمعتها في حياتي ثم قلت لها
لو جاز لي دفنها ضمننتها جسدي
كوني لغيري بالميراث في السد
أخشى على كتبي إن مت يجمعها
من لا يرى حفظها أوهى بنا جلدي

وهذه فصول منتزعة من سير أهل المغرب في معاملة طلبة العلم:

ورد عن جماعة من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف أنه قال: لما انفصلنا
عن «تموسلت» وتوجهنا إلى بلادنا، جزنا على ناحية «أريغ»، فسلطنا من «وغلانة»
ومررنا بلفول بن يحيى، فأكرم مثوانا، وأحسن نزلنا، وكان يقول مع ذلك معتذراً:
فريتنا صغيرة، ودراهمنا قليلة، ويتمثل بالبيتين:

أرى نفسي تتوق إلى المعالي
ولا نفسى تساعدني ببخل
ويقصر مبلغهن مالى
ولا مالى يبلغني المعالي

وأقبل تلك الليلة على مؤانستنا وإفادتنا بغرائب الأخبار والسير، حتى كاد
الفجر يطلع (...) وقال: لما مات أبو عبد الله محمد بن بكر، قلت للمشائخ: «اقتفوا
بنا آثاره ما دامت جديدة غير مندرسة، قالوا: مهلاً عليك، فساعدتهم حتى عفا
الأثر، ودرست السير». ولما انفصلنا، شيعنا، فقال له أحدنا: إرجع، فقال: أه، لا

يقال كذلك، إنما يقال: انظر في الرجوع، ولم يزد بعد هذا خطوة، لأنه قال: إنه مأجور ما لم يقل له إرجع»⁽¹⁾.

وحدث يخلف بن يخلف التميمي قال: «كان شيخنا أبو أيوب بن إسماعيل كثير الإبرار لتلامذته، وكانت له داران بوارجلان متقابلتان، يفصل بينهما طريق، وفوق الطريق سباط وصل بين الدارين عن علو، فأحدى الدارين دار سكناه والأخرى معلقة للتلامذة والأضياف، فما كان في دار سكناه من تحف وضيافة يتحف بها تلامذته، أو يكرم أضيافه»⁽²⁾.

ومن شأن المعرفة أنها متنوعة، تتمتع بأشد تمنع يكون، فيكون على طالبها أن يشكك في ما تعلمه بأشد تشكك يكون. فهذا العلامة أبو جابر محمد بن جعفر الأزكوي، من علماء النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، يقول: «كنت أعتني بالشك، فأسأل محمد بن محبوب، وسعيد بن محرز، وسليمان بن الحكم، والوضاح بن عقبة، وغيرهم من الفقهاء»⁽³⁾.

وفي الانقطاع للعلم إخلاصاً له، ورد في سير المغاربة ما يلي:

أن أبا يعقوب بن إبراهيم السدراتي الوارجلاني أقام سبعة أعوام ملازماً داره لا ينصرف، فكان متى زاره أحد من الزوار وجده إما ينسخ وإما يدرس، وإما يقابل، وإما يبيري الأقسام، وإما يطبخ الحبر، وإما يسفر كتاباً، لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا إن قام لأداء فريضة. وكان إذا اعتمد تأليفاً أو نسخ ديواناً لا يهوله ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة، فإن له على ذلك قدرة. ولقد حدث الدرجيني بعض الثقات، قال: «وقفت ببلادنا قسطنطينية وسوف ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده»، ويضيف الدرجيني: «وأما أنا فرأيت منها ثلاثاً»⁽⁴⁾.

وكانت كل وقفة للطلبة مع أستاذ لا تخلو من فائدة تستفاد. فقد ذكر في ترجمة أبي يعقوب الوارجلاني أنه كان إذا جاء إلى موضع الوضوء في مسجد وارجلان، انصرف كل من حول المتوضى، فيضع من يده سفيراً ومفتاحاً، ويضع عمامته وكساءه، ويقعد في ثوب واحد فيدخل المطهرة، فيرجعون ويأخذ أحدهم

(1) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 452 - 453.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 459.

(3) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 271.

(4) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 493.

شيئاً فيقول: «ردوا عليّ علائقي»، فيقول أحدهم: «أرد بعوض»، فيسأل عن مسألة في النحو، ثم يجيب، فيرد ما أخذ، ثم يسأل الآخر عن فريضة، ويسأل الآخر عن مسألة فقهية، ويسأل الآخر عن تأويل آية، ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا، وعن غير ذلك، فيجيب كلهم، حينئذ يردون عليه ما أخذوا، فكان هذا دأبه حتى لقي ربه⁽¹⁾.

وقد ذكر غير واحد من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف قال: أردنا الطلوع إلى جبل دمر لدراسة الكتب، ونحن جماعة نقرأ بتمولسة، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا يحيى زكرياء، فمضينا على ذلك، فشيئنا أبو يحيى فقال: اعلما أن سوء الرأي إنما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه، لا بالتمادي عليه. وقال لهم أيضاً: إنكم إن مضيتم إلى أهلكم على هذه الحالة كنتم كمن تعمد إماتة الدين. وفي هذا تحريض وترغيب في طلب العلم⁽²⁾. وما كان أشد على نفوسهم من غربة الكتاب بين أهلهم، فكانوا عادة ما يشتكون من قلة عناية ذويهم بالعلم وبالكتاب:

ذكر أن ابناً للفيقه العلامة أبي صالح جنون بن يمران اشترى كتاباً، فكان يقرأه على أبيه، وكان أبو صالح يخاطب الكتاب ويقول: «باعك من يعرفك واشتراك من لا يعرفك». ويعلق الدرجيني على هذه الحكاية بالقول: «وهذه الحكاية تدل على أن هذا الكتاب كتاب عجيب، وأن الولد ولد غير نجيب، ولكن خاطب [الأب] ابنه بما يفهم من هذا الوجه، ولم يقابله بقبح الزجر»⁽³⁾.

وما كان أشد حرصهم على الكتاب وتقديرهم إياه حتى اشترطت امرأة منهم نسخ كتاب مهراً لها. قال الشيخ عبد الله بن سعيد القطاف الشقصي البهلوي: «قد فرغ العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن سعيد القطاف الشقصي البهلوي من كتابة القطعة الرابعة، وهي الأخيرة من كتاب «منهاج العدل» تأليف الشيخ العالم العلامة القدوة الثقة عمر بن سعيد بن عبد الله المعد البهلوي بتاريخ التاسع من شهر رجب الأصم من شهور سنة 1122 من الهجرة الإسلامية، وقد كانت كتابة «منهاج العدل» بقطعه الأربع مهراً للفضية الرضية الوفية الجوهرة بنت عبد الله صالح التي هي من نسل بني مفرح بعد شرطها ذلك». (أورده صاحب النمر عن مجموعة أوراق مخطوطة من منهاج العدل، كتبها العلامة عمر بن سعيد بن عبد الله المعد البهلوي، مكتبة السالمي، بديّة).

(1) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 492 - 493.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 449.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 344. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 433.

ومال بعضهم إلى إحداث ضرب من تكامل أصناف المعرفة بين الطلبة، فلا يتخرج الطالب عالماً بعلم واحد، بل بعلوم.

فقد ذكر عن أبي يعقوب محمد بن يدر الدرقي النزفي، وكان في منطقة أمسنان، عادته يجلب العزاب المبتدئين من أهاليهم، ويعلمهم الأدب والسير، فإذا وصلوا الشيخ محمد بن سدرين الوسياني (ت 440هـ/1048م) أقرأهم القرآن والإعراب والنحو، وإذا وصلوا الشيخ أبا عبد الله محمد بن بكر علمهم الدين والعلم والأصول. فمثلوا هؤلاء الشيوخ الثلاثة في أريخ، وقالوا: أبو يعقوب القاطع للأعواد من الجبل حزمات، والنجار أبو عبد الله محمد بن سدرين يقطع الحزمات ألواحاً، ويركبها الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر ويصلحها ويسنيها⁽¹⁾.

هذا وقد بلغ بهم حب شراء الكتاب، وشغف إفادة الطالب، حد الافتقار. فهذا الشيخ العُماني سليمان بن شويمس بن حمودة المذكوري المشيفري بذل أموالاً طائلة في نسخ الكتب، وفي تعليم الصبيان، وكان يردد هذا البيت:

إذا شئت أن تضحى من المال معدماً فكن ناسخاً كتباً وإلا معلماً

ومع ذلك أسفوا بأشد أسف يكون إن هم أهملوا الطالب أو صدوه أو اشتغلوا عنه. فقد قال العلامة العُماني ماجد بن خميس بن راشد العبري: ما تأسفت لشيء كما تأسفت ذات يوم صليت الظهر بالمسجد الأوسط من محلة القرن من الرستاق، فلما فرغت من صلاتي وهممت بالخروج من المسجد إذا بالشيخ السالمي حاملاً كتابه يريد أن أشرح له فيه، وكنت لا أخلو من شاغل، فاختلست عنه ولم أكلمه وتركته في مسجده ولم أرجع إليه لأنني ما كنت أظنه يبلغ هذه الدرجة من العلم. (نقله صاحب النمير من مخطوطة «تبصرة المعتبرين»).

ولقد كان بعض القدماء أبطالاً في الصبر على المطالعة، يهزمون الضجر والإملال الذي عادة ما يعتري القراء ويستبد بهم، ويمنعهم من التحصيل الصبور والقراءة غير الضجورة.

وقد ذكروا بهذا الصدد حكايات نادرة.

وقد روي عن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي أنه قرأ كتاب «شرح كتاب النيل وشفاء العليل» للقطب امحمد أطفيش ست مرات.

(1) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 481. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 397 - 398.

ومنها ما ذكره البطاشي في إتحافه من أن الشيخ العلامة محمد بن مسعود بن سعيد البوسعيدي كرر قراءة كتاب «بيان الشرع» - على طوله الشديد وكثرة أجزائه - ستين مرة، وقيل: ثلاثاً وسبعين مرة، والعدد الأول ذكره بنفسه للشيخ الفقيه سالم بن فريش الشامسي - فيما سمعت⁽¹⁾.

ويروى عن الشيخ الفقيه الزاهد درويش بن جمعة بن عمر المحروقي العُماني (1020هـ/1611م - 1086هـ/1676م) من علماء القرن الحادي عشر الهجري ومن قضاة الإمام سلطان بن سيف بن مالك، أنه في أيام التعليم، كان حريصاً على استغلال فارغ وقته لأجل القراءة والمطالعة. ومما حدث له بهذا الخصوص، أنه في بعض الأحيان كان يزجر على ثور لسقي مزرعته، وفي أثناء قيامه بالزجر، يضع كتاباً في أسفل الخب، فإذا وصلت الدلو في قعر البئر، استغل تلك الدقائق، فيفتح الكتاب، ويقرأ منه أسطراً حتى تمتلئ الدلو⁽²⁾. فانظروا!

وقرأوا وأقرؤوا وهم سالمون وهم سقيمون عليون:

هذا الشيخ العلامة محمد بن أبي الحسن النزوي، وكان رجلاً أصم، ثقيل السمع، وكانوا أحياناً إذا أرادوا استفتاءه، كتبوا له في الأرض، فيفتيهم بما كتبوا في الأرض⁽³⁾.

وقد ورد في ترجمة الشيخ العُماني صالح بن عمر بن أحمد البهلوي (من آل ابن مفرج) أنه كان بعد تاريخ حافل من العطاء في القضاء: «ابتلي بعلقة الجذام، ولعل ذلك آخر زمانه، وبعد ممارسته للقضاء، فاعتزل الناس من أجل هذه العلة، ولزم منزله في ماله ببهلى، فكان يقصده إخوانه من أجل المذاكرة»⁽⁴⁾. فدل بهذا على أن حب المذاكرة لا نهاية له ولا نفاذ لصبر عليه. هذا مع تقدم العلم أن الناس أنها كانوا عادة ما يتحامون القرب من المجذوم، أو حمله بعد موته إلى المقبرة لمواراته⁽⁵⁾.

وقرأوا وأقرؤوا وهم معوزون:

فقد روي عن الشعثاء كانت تسأل أباهما الإمام جابر بن زيد دهنًا تلين بها شعرها، ويعتذر لها بقلة ما في يده، وأن ما عنده من الدهن - وهو المعروف

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص.310.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص.169.

(3) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص.300.

(4) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص.27.

(5) المصدر نفسه، ص.29.

بالسليط عند العُمانيين - أولى أن يستعمله للسراج لقراءة مسألة، ويقول لها: استعملي الماء الساخن بدل الدهن. وعندما رحل العلامة عامر بن خميس المالكي إلى القابل للدراسة على الشيخ صالح، رفض والده أن يتعلم، وقال له: جئنا للعمل لا للعلم، وكان ذلك في زمن المحل، فإن كان لا بد لك منه فأتني كل يوم بقفيز سمد لبيعه، فكان من حرص العلامة المالكي على العلم أن يذهب قبل الفجر فيسمد ويعطيه والده، ثم يصلي الفجر مع الشيخ. (ساقه صاحب النمير).

وحدث القائم في مسجد القابل بشرقية عُمان عن الشيخ محمد بن عبد الله الخليلي أنه لما خرج الناس من المسجد بعد صلاة العشاء بقي الإمام محمد، وبعد دقائق قليلة وقف وكيل المسجد عند رأسه، فقال له: ما تريد؟ قال: إطفاء السراج، فقال له: أريد المطالعة، ثم أكفيك إطفاءه. قال: فخرجت عنه ونمت في بيتي، وقمت قبيل الفجر إلى المسجد للأذان لصلاة الفجر، فلما دخلت وجدت الشيخ كما هو في وقت العشاء، فوقفت على رأسه، فرأني فقال: قلت لك: أنا أكفيك إطفاء السراج، فاذهب أنت. فقال: يا سيدي، ذهبت فتمت في بيتي، والآن جئت لصلاة الصبح، قال: سبحان الله ما شعرت بذهاب الليل، فترك الكتاب. (أورده صاحب النمير).

وشبيه بهذا ما يذكر عن العلامة الفقيه أبي محمد ابن جميل بن خميس بن لافي السعدي صاحب كتاب «قاموس الشريعة» الواقع في واحد وتسعين جزءاً أنه كان يعتكف على نسخ كتابه طوال الليل، ويشعل قنديلاً يستضيء به، ويستمر على هذا الشأن حتى بعد صلاة الفجر وإلى طلوع الشمس. ويذكر أن مرة من المرات مرت عليه راعية، فلما رأت ذلك المشهد عجبت منه واتهمته بالجنون، إذ كيف يشعل قنديلاً في وضح النهار؟ (أورده صاحب النمير).

ونظيره ما يروى عن الشيخ العلامة عامر بن خميس المالكي من أنه كان شديد الحرص على المطالعة، عظيم الهمة في طلب المعرفة، حتى يحكى عنه أنه كان دأبه أن يوقد السراج من بعد العشاء، ويواصل قراءته إلى الفجر. وفي ليلة ما هطلت أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد والبرق، ولم ينتبه الشيخ لذلك حتى خرج لصلاة الفجر، فرأى المياه حول المنزل، فسأل أهل بيته قائلاً: «من أين هذا؟» فقالوا له وهم متعجبون من كلامه: إنها نزلت أمطار بالليل (أورده صاحب النمير).

وقد كلفوا بالكتب وحبها أي كلف:

هذا الشيخ الفقيه الناظم بشير بن سعيد بن عبد الله النزوي، كانت له مكتبة حافلة يلازمها كل الملازمة، ثم حالت الصروف بينه وبينها فصارت هملي منسية، شأن اليتيمة التي تخلي عنها، وأنشأ قصيدة في رثاء مكتبته لعلها من أندر المرثيات من هذا الصنف في جنسها حفظت لنا في هذا التراث البديع، يقول فيها:

بكت عيني على كتبي	بدمع واكف سكب
وعيني طالما سهرت	لها بالليل في الطرب
وبالإصباح مجتهداً	وبذل النفس في الطلب
لوجه الله محتسباً	ليوم فيه منقلبي
عساه أن يقيني	حر ذات الحر والهب
فأمست والقتام بها	كذي يتم بغير أب
فيا أسفي على من لا	يذوق حلاوة الأدب
فأدعو الله يحفظها	ويكلؤها من العطب
بـوال عالم ثقة	ولي مرتضى أرب
هو المدعو ربي	سواه مدة الحقب ⁽¹⁾

وتغالوا في نسخ الكتب، وأنفقوا فيها الأموال. فقد ذكر العلامة أحمد بن حمد بن سليمان الخروصي كيف بلغه أن الإمام أبا نهبان جاعد بن خميس بن مبارك الخروصي أمر أحداً من الناس بأن ينسخ له شرح تائية ابن الفارض، فكان نسخ هذا الشرح له بسبعين قرشاً من القروش الفضية المتداولة في ذلك الوقت، وهي الريالات النمساوية التي كانت متداولة في عُمان، مع أن قيمة سبعين قرشاً ليست بالقيمة الهينة. فانظر!

وأحبوا الكتاب، وكتبوا الكتاب. في ظروف قاهرة عصبية:

فقد ذكر مقدم كتاب «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب» الشيخ حارث عن أبيه العلامة محمد بن شامس البطاشي كيف أنه نتيجة لمشاغل القضاء عند والده ولمكانته الاجتماعية بين الناس واللتين منعتاه عن التأليف نهائياً، لم يكن له من محيص عن المطالعة والكتابة بالليل على ضوء السراج، وفي أحيان على ضوء القمر حتى تم له نظم ما نظم من السلاسل، وزاد عليه أن نسخته في

(1) أوردها سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 65.

ثلاث نسخ كلها بخط يده بلا معين، ولا مساعد. وما زال على تلك الحال من المطالعة والتأليف حتى أصيبت عيناه بالنزول الأبيض والأسود ثلاث مرات من كثرة الإجهاد.

وغامر الشيخ أبو محمد عبد الله اللواتي بحياته طلب اقتناء كتب بل كتاب. يروي الدرجيني في طبقاته أن سبب سفر الشيخ إلى القلعة أن قال له مدوار: تركت كتاباً في تفسير القرآن من تأليف الإمام عبد الرحمن ينادى عليه بالبيع في سوق القلعة، فسافر وليس له من هم ولا أرب غير الكتاب المذكور، واستبضع شيئاً من الشب يظهر أنه تاجر، وغرضه أن يستتر به فيما اعتمده. وكان وصوله إليها في فصل الخريف، فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب في خفاء برفق وسياسة، فبينما هو يسأل ذات يوم لقي رجلاً نكاريماً يدعي علم مسائل الفروع، فسأله عن الكتاب المذكور، فقال له متأسفاً على فواته، وقد بيع قبل قدومك (...). قال أبو محمد: فاشتريت كتباً ووجهتها في رفقة فأصيبت، ثم استأنفت النظر في شراء كتب أخرى، فبلغ أصحابي أن كتبي التي وجهت قد أصيبت، فقالوا لي: ألا تكلم السلطان في حقك لتكون من قبله معونة في الذي تحاوله من تحصيل الكتب، فإنه شغل ليس بحقير؟ فقلت لهم: لا، بل إن كانت لي حاجة في شيء رجعت إليكم، ثم استعنت بكم... ورأني رجل منهم في موقف الشب، وهو مكان معروف بأهل وارجلان، فقال لي: وارجلاني والله! فقلت له: أيحل لك أن تخاطب بهذا رجلاً مسلماً؟ وكان ذلك في مدة قتل فيها أهل وارجلان جماعة من الأشعرية (...). وسمع شيوخ «وغلانة» بما أصابني في الكتب، فاجتمعوا وأجمع رأيهم على أن ينظروا في إعانتني بقدر ما أصيب مني ليخلفوه علي (...). فلما أحسست بالذي عزموا عليه أردت الخروج في خفية، فخرجت بالهاجرة فلم يشعروا بي إلا وأنا خارج البلد، فوصلت «تنوال» سالمًا والحمد لله رب العالمين⁽¹⁾.

وذكر صاحب النمير أن الشيخ سليمان بن شويمس بن حمودة المذكوري المشيفري بذل أموالاً طائلة في نسخ الكتب، وفي تعليم الصبيان، وكان يردد هذا البيت:

إذا شئت أن تضحى من المال معدماً فكن ناسخاً كتباً وإلا معلماً

(1) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 471 - 472.

ويقول أحد التلامذة عن العلامة حمود بن حميد الصوافي: «في ذات يوم كان الشيخ حمود بن حميد الصوافي ذاهباً إلى مسيره برفقة مجموعة من الطلبة، وفي المركب أمر بالقراءة من كتاب، ومع الاهتزاز الشديد تعذر على القارئ الاستمرار، فطلب الشيخ من مرافقيه أن يسمعه شيئاً من محفوظاتهم حتى لا يضيع من ذلك وقت. (ذكره صاحب النمير).

ونقل صاحب النمير كيف حكى الشيخ إبراهيم بن سعيد بن محسن العبري عن نفسه حادثة كانت السبب في اكتشاف نبوغه المبكر من لدن شيخه العلامة ماجد بن خميس بن راشد العبري. وملخص الحكاية أن الشيخ إبراهيم كان قد اعتاد على أن يصحب رعاة الإبل التي ورثها عن أبيه عند خروجهم بها من البلاد إلى المراعي الواقعة على ضفاف الأودية والشعاب، وكان عند خروجه مع الرعاة يمر بمدرسة السحمة أثناء التدريس. وذات يوم، وقف خلف الحلقة كعادته وأنصت إلى ما يلقيه الشيخ ماجد على مريديه من غريب المسائل وعويص الفرائض، وكان أن طلب منهم الشيخ البحث عن الأسئلة التي طرحها عليهم ليوافوه بالجواب لكل مسألة في الدرس الآتي. ولما كان الغد، مر الفتى إبراهيم وتوقف كعادته يسمع الحوار العلمي والمناقشات الفقهية بين الشيخ ومريديه، فكان الشيخ يسأل والتلاميذ ما بين عاجز عن الجواب ومتعثر فيه، فما كان من الطالب المراقب إلا أن تقدم عن قرب، فشرح جميع الأسئلة المذكورة في الدرس السابق. وهنا قام الشيخ الوقور تجلله المهابة والتقوى فرحاً بالفتى النجيب، وأخذ بيده، وأجلسه متعجباً من إهمال أخيه له وتركه يرعى الإبل وهو أهل لأن يقود الأمام ويهدي الحيارى. ومن ذلك اليوم، أولاه العلامة ماجد الرعاية والاهتمام اللذين يليقان به.

وحتى حين كانت تحدث بين العلماء المتعاصرين المتجايلين البلديين ما يحدث عادة بين الأقران من تحاسد وتباين، كما حدث بين قطبي الفكر الفقهي العُماني أبي سعيد الكدومي وابن بركة، تجد الروايات تتواتر للتقليل من خلافات التغاير هذه صحت أو لم تصح. فقد كان ابن بركة وأبو سعيد يعيشان في عصر واحد، وحدث أن وقع خلاف كبير بينهما، وشَنَّ كل منهما على الآخر، على خلفية قضية موسى بن موسى وراشد بن النظر، من جهة، والإمام الصلت ابن مالك، من جهة أخرى، وكانت الكائنة قبل وجودهما بزمن طويل، فكان أن

قال فيها ابن بركة: إن الصلت إمام بالإجماع، والخارج على إمام بالإجماع باغ بالإجماع، والبراءة من الباغي بالإجماع واجبة بالإجماع، فألزم الناس ما لم يلزمهم؛ وقال أبو سعيد: إن هذا الفعل يجوز فيه الولاية والبراءة والوقوف، كما يجوز فيه ولاية المتولي والمتبرئ والواقف، لأنها دعاو محتملة للحق والباطل، وكل منهم قد أخذ برأي، ولكل رأي مخرج وأصل في الحق، ودان بذلك، ودان بتخطئة من خالفه... ولاتساع الخلاف بينهما في تلك القضية، وشدة الاحتجاج فيما بينهما، فقد بلغ الحال بالعلامة ابن بركة - فيما روي عنه - من التحامل على أبي سعيد بقوله: «كنا ننكر على الكدمي كثرة بلادته، وتظاهر جهالته، فأما الآن، فما ننكر عليه إلا تواتر حماقته، وذلك أن الجهل يداوى بالتعليم، والحمق مركب في الطباع، ولا يزول إلا بزوال صاحبه»... وظل الحال بينهما هكذا، إلى أن توفي أبو سعيد قبل ابن بركة، قيل: وكان [ابن بركة] لا يقرأ في كتب أبي سعيد، ولما اطلع عليها بعد موت أبي سعيد، وعرف ما فيها، بكى...⁽¹⁾.

وسواء صح هذا النقل أو لم يصح، فإنه ليس يبعد عن عالم من مثل طينة ابن بركة ألا يراجع موقفه من كتابات عالم آخر فذ كالكدمي، فإن مراجعة الرأي من أخلاق العلماء.

والشيء بالشيء يذكر، فقد ذكر في ترجمة الشيخ أحمد بن عبد الله الكدمي - وهو من علماء القرن السادس الهجري بعمان - إنما أخذ العلم عن العلامة الشيخ أحمد بن محمد بن صالح الغلافقي النزوي، وأنه كان على خلاف مع شيخه؛ لأن هذا من الطائفة النزوانية، والتلميذ من الطائفة الرستاقية... ويظهر الخلاف بينهما في رسالة كتبها شيخه، في سيرة الإمام محمد بن غسان، في حربه لأهل العقمر من نزوى. قال العلامة نور الدين السالمي: «وقد رد هذا التلميذ على شيخه، رداً بليغاً مسلماً لو سلم صحة أصل الإمامة، غير أن شيخه يقدح في أصل إمامتهم»⁽²⁾. بما يشي أننا لسنا أمام ثقافة جامدة لا اختلاف فيها ولا خلاف، وإنما نحن أمام ثقافة حية تشهد على النقاش والمنافحة. ففي تنسيب الأحكام ورفض صلة التبعية التي عادة ما تقوم بين الشيخ وتلميذه، يعتبر قول

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 269 - 297.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 326.

الخليل بن أحمد الفراهيدي الغاية التي لا تُدرك: «لا يعرف الرجل خطأ معلمه، حتى يجالس غيره».

وما فكروا في الكتاب - كتباً وقراءً - وحسب في حياتهم، وإنما فكروا في مصيرها بعد موتهم.

وهكذا كتب العديد منهم وصاياهم تضمن العديد منها الوصية بالاستفادة من الكتب. فكم أوصى حكماء عُمان وغيرها من البلدان المذكورة حكمتها في هذا الكتاب بكتبهم وأوقفوها على طلاب المعرفة.

هذا، مثلاً، الفقيه خميس بن سعيد الشقصي، من علماء القرن الحادي عشر الهجري، وصاحب كتاب «منهج الطالبين» المؤلف من أربعة وعشرين جزءاً، يترك وصيته وقد ذكر فيها ما يلي:

«(...) وقد أوصيت بجميع كتبي، التي أخلفها بعد موتي، أن يتعلم منها المتعلمون من ذريتي، وغيرهم من المسلمين. فإذا ذهب المتعلمون من ذريتي وانقرضوا، فهي على رأي «أهل العلم والصلاح من الأفاضل، أفاضل أهل زمانهم»⁽¹⁾.

وقد ذكر أبو سهل أن الشيخ إبراهيم بن أبي إبراهيم بن يخلق بن مالك المزاتي الدجمي التغرمانى كسر ألف دينار على الكتب، كانت عنده أربعون مخلاة كتب من جلود، كل مخلاة سلخ تيس تام، وأنه أوصى بها للشيخ أبي العباس⁽²⁾.

ومن الوصاية بالكتب إلى الوصاية بإصلاح الكتب لا من لدن رجل وإنما من لدن امرأة في ثقافة ذكورية. يتعلق بعائشة بنت راشد بن خصيب الريامية التي يصفها صاحب «الإتحاف» بأنها كانت «الشيخة الفقيهة العالمة الزاهدة» التي كانت أيام الإمام بلعرب بن سلطان (نصب عام 1090هـ/1679م) وأخيه وحفيده. وذكر أنها كانت لها مدرسة، وأنها كانت فقيهة عالمة متصدرة للفتيا ولربما كانت لها أيضاً مشاركة في السياسة⁽³⁾. ثم يورد لها بعض الفتاوى، ويضيف بالقول: «والمتبادر أن لها خزانة كتب أوقفتها، وأوصت بشيء من

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 153.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 738 - 739.

(3) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 343.

المال لإصلاحها»⁽¹⁾. وقد عثر على وثيقة تتحدث عن تخصيص تسع قياسات من قسمة ماء فلج بالرسحاق لإصلاح الكتب، ذكر أنها أوقفها الشيخة عائشة بنت راشد بن خصيب لهذا الشأن.

وهذا، على سبيل المثال، العلامة خميس بن سعيد الشقصي يهتم لمصير كتبه ولأمر إرثائها وإصلاحها بعد وفاته، فيضمن وصيته ما يلي:

«(...) وقد أوصيت بجميع كتبي، التي أ خلفها بعد موتي، أن يتعلم منها المتعلمون من ذريتي، وغيرهم من المسلمين. فإذا ذهب المتعلمون من ذريتي وانقرضوا، فهي على رأي أهل العلم والصلاح من الأفاضل، أفاضل أهل زمانهم.

وقد أوصيت بنصف أثر ماء، من مائي من الميسر من سوني من الرستاق، يصلح بغلته ما خرب من هذه الكتب، ويجدد منها ما رث وصار مؤبداً إلى يوم القيامة، ونصف هذا الأثر يخرج على نظر الوصي وصيتي والبالغ الحاضر من ورثتي، وما فضل من غلة هذا نصف أثر الماء يشتري به قرطاس، ويستأجر به على النسخ وتجليد ما ينسخ من كتب الأثر الذي في الشريعة، ويكون زيادة على هذه الكتب المذكورة (...)»⁽²⁾.

وفي ترجمته للعلامة الشيخ الفقيه سلطان بن محمد بن سلطان البطاشي، من فقهاء القرن الثاني عشر الهجري، يذكر صاحب «إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان»، كيف أنه كان للشيخ المترجم له مكتبة ببلد «إحدى»، تضم كثيراً من الكتب المخطوطة، وكيف ذهبت كلها، ولم يبق منها في أيدينا إلا ثلاثة كتب، وكيف أن سلطان البطاشي كان قد أوصى بقطعة مال لتجليد الكتب، وكيف أن حفيده محمد بن شامس بن سلطان جد الوصية بها⁽³⁾.

ولم يقتصر الأمر بالوصية على الرجال منهم بل شمل النساء أيضاً، فكم من امرأة عُمانية أوصت بالقيام على الكتب بعد موتها، أو بوقفها على الطلبة. فقد وقفت موزة بنت علي بن سعيد السعدية وولدها خميس بن سالم بن سهيل السعدي عدداً من الكتب لطلبة العلم. ومن ذلك كتاب: «مقاصد الدليل وبرهان السبيل في مصالحات العليل» للشيخ راشد بن عميرة بن ثاني بن خلف

(1) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 343.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 153 - 154.

(3) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 275 - 276.

العيني الرستاقى، وقد ورد على الورقة الأولى من مخطوطة الكتاب ما يلي: «هذا الكتاب من الكتب التي وقفها خميس بن سالم بن سهيل السعدي ووالدته موزة بنت علي بن سعيد السعدية وفقاً مؤبداً إلى القيامة لمن يتعلم فيه من المسلمين». (أورده صاحب النمير).

وبالجملة، تردد ذكر النساء العُمانيات أثناء الحديث عن المخطوطات ما بين ناسخات أو فقيهاً نسخ لهن أو طالبات علم حرصن على اقتناء المخطوطات أو صالحات أوصين بعدد من المخطوطات. وقد ذكرنا نموذجاً سابقاً، وها نموذج آخر يضاف إليه، وما كانت النماذج بعزيزة الوجود:

كانت الشيخة الفقيهة ضنوة بن راشد الخفيرية النزوية من العالمات الفقيهاً، وكانت لها خزانة مخطوطة وقفها بعد وفاتها على طلبة العلم، وكانت مكتبتها باقيةً إلى زمن العلامة محمد بن عبد الله بن سعيد الخليلى. ويؤكد ذلك أنه في زمن هذا الإمام، جاءه محمد بن سليمان بن راشد، وهو من الخفير النزوي، فقال له الإمام: «لا تحجبوا كتب ضنوة عن طلبة العلم، فما جعلتها إلا لذلك. وذكر صاحب النمير أن مكتبتها تفرقت في عدد من المكتبات بمدينة نزوى، وأنه وقف على شيء من الكتب المنسوخة لها.





كتاب «لا»

«وكان الشيوخ يكرهون الوفاة على الجورة، وقد أخرجوا
عبد الله بن جابر لوفادته إلى أمراء قابس وهاجروه. وفي
الخبر: إذا رأيتم العالم يمشي إلى أبواب السلطان، فاتهموه
في أمر دينكم».

العباس أحمد بن سعيد الشماخي



سمى العرب بعض كتبهم بحروف من لغتهم، فقالوا: كتاب «ليس» مثلاً، كما في كتاب ابن خالويه «ليس في كلام العرب».

كما سموهم باسم حروف: كتاب الألف لابن عربي مثلاً.

وكتاب «ألف باء» للبلوي.

وبعضهم ألف كتاباً في «أبجد»، كما في «أبجد العلوم» للقنوجي.

وعادة ما يحكي التاريخ الرسمي عن قالوا: «نعم» لسلطان غاشم أو لحاكم متجبر أو داهنوه وسايروه، ولكن نادراً ما يحكي عن قالوا له: «لا»، مجلجلة حتى وإن قطعت أرزاقهم، بل ألسنتهم، بل أعناقهم.

هاهنا نعيد كتابة صفحات من تاريخ قول: «لا» أمام ظلم نازل أو عسف حاصل أو شطط حادث.

وأول حكاية حكيمية نوردها بهذا الصدد ما حكي عن الإمام جابر بن زيد من أنه كان يحج كل سنة، فلما كان ذات سنة بعث إليه والي البصرة أن لا يبرح العام، فإن الناس إليه محتاجون، فقال: «لا أفعل»، فحبسه، فلما كان غرة ذي الحجة جاءه الناس، فقالوا: «أصلحك الله قد هلّ هلال ذي الحجة»، فأرسل إليه وأخرجه من السجن. فأتى إلى داره وله ناقة قد أعدها للخروج، فأخذ يشد عليها الرحل، ويقول: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك له». ثم قال: «يا أمانة عندك شيء؟»، قالت: «نعم»، قال: «فاجعليه في جرابي»، فهيات له زاده، ثم قال: «من سألك فلا تخبريه بمسيري يومي هذا»، فخرج من ليلته، فانتهى إلى عرفات والناس بالموقف، فضربت الناقة بجرانها الأرض، وتجلجت، فقال الناس: «دكها يا أبا الشعثاء»، قال: «حقيق لناقة رأت هلال ذي الحجة بالبصرة أن تفعل هذا»، ثم سلمها الله. وكان قد سافر عليها أربعاً وعشرين سفرة، في حجة وعمرة⁽¹⁾.

وثاني حكاية نوردها تخص الخليل بن أحمد الفراهيدي. فقد كان سليمان بن حبيب بن المهلب والياً على السند، فأرسل إلى الخليل يطلبه لتأديب ولده، فأخرج خبزاً يابساً وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي بسليمان، فقال الرسول: ما أبلغه عنك؟ فقال:

عادة ما يحكي التاريخ الرسمي عن قالوا: «نعم» لسلطان غاشم أو لحاكم متجبر أو داهنوه وسايروه، ولكن نادراً ما يحكي عن قالوا له: «لا»، مجلجلة حتى وإن قطعت أرزاقهم، بل ألسنتهم، بل أعناقهم

(1) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 208.

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
سخي بنفسي أني لا أرى أحداً
والفقر في النفس لا في المال نعرفه
والرزق عن قدر لا العجز ينقصه
وفي غنى غير أني لست ذا مال
يموت هزلاً ولا يبقى على حال
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
ولا يزيدك فيه حول محتال

هذا الشيخ الفقيه العُماني أبو بكر ابن محمد بن خالد الخروصي البهلوي، عاش في القرن الثالث الهجري أو الرابع على الأرجح، أتوقف في هذا ولا أكاد أجزم، عاش في أيام الإمام سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب. وحدث أن أمره الإمام بأن يتوالى بعض قرى الجوف، فامتنع عن ذلك، فقال له الإمام: «أما شئت، فافعل ما أمرك به، وأما فالحبس»، ولم يعذره بين الولاية أو الحبس، إذ رأى أنه يصلح لذلك، وقد وقع عليه النظر من الإمام، حكاه الشيخ أبو زكريا يحيى بن سعيد في كتاب «الإيضاح»⁽¹⁾.

وجود الخبز اليابس
يغني عن الوقوف
باب الحاكم الظالم

وهذا العلامة الشيخ ابن النظر نقل بعضهم قصة موته عن «خزانة الأخبار». إذ قتله أحد الملوك الجبابرة النبهاني خردلة الجبار بسمائل، لقوله الحق أمامه، وهو حاكم طاغية كان يأخذ أموال رعيته ظلماً، فكان يأخذ من السبع نخلات نخلة، ويسقي أمواله بماء العباد، ويأكل أموال المساجد والمدارس والمقابر، ويأخذ نصف مهر المرأة من العاجل إذا تزوجت، وإذا طلقت خاصم في الأجل، وكان يأخذ نصف الحب والتمر والقطن، ويكلف الناس حمل متاع بيت المال إلى الحصن بعنف، ويكلف أهل قيقا وبدبد يحملون تمرهم وما يقتضيه منهم على دوابهم وظهورهم إليه لا بيالي، ويأخذ نصف حق المدعى، وكان لا يُحَلَّفُ المنكر بل ينوع له العذاب حتى يقر عنده... وقد قتل هذا الجبار الشيخ ابن النظر في قصة مشهورة، وهي امتناع الشيخ عن دفع مهر ابنة أخته إلى هذا الجبار - واسمها عائشة بنت محمد بن راشد - من بني النظر، كان تزوجها رجل من بني النظر على مهر خمسين محمدية فضة، وكان خردلة يأخذ نصف مهر المرأة من العاجل إذا تزوجت، وإذا طلقت خاصم في الأجل، إلى غير ذلك من ظلمه وغشمه. ولما تزوجت تلك المرأة، أرسل جندياً يأخذ نصف مهرها من الشيخ أحمد، فمنعها الشيخ، فما كان من الطاغية إلا أن أرسل جندياً جملة يدعون الشيخ إلى حضرته، فلما وقف بين يديه طالبه بالدرهم، وتهدده وأغلظ عليه. ومن بعض قوله له: «كنا أردنا منك الخمسين فقط، والآن لا يكفيننا إلا دمك»، قال

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 281.

الشيخ: «الأمر لمن خلقك، لا لك». فقال: «أوتَهزأ بي؟» فأشار إلى بعض الجند أن ألقوه من هذه الكوة، فكتفوه وألقوه. وكانت كوة قصره شديدة العلو، فوقع إلى الأرض ميتاً وله من العمر خمس وثلاثون سنة.

قيل: إنه كتف بعمامته، ورموه من كوة البرج المربع... ولما قتل، أمر خردلة أن تُدخِل داره ويؤخذ ما فيها، فأخذت كتبه وأحرقت، وعُمان يومئذ عليها أمراء، كل واحد منهم تغلب على ناحية منها، وساروا في الناس بالعسف والظلم...⁽¹⁾.

وفي عهد الإمام أحمد بن سعيد السعدي الأزدي العُماني ذكر أن من عدله وإنصافه، أنه ترك أيام دولته على حصن الرستاق رجلاً من بني سعيد أميراً على عسكر الحصن، فغضب ذلك الأمير ذات يوم على رجل قصاب [جزار] من أهل الرستاق، فسحب اللحم الذي أودعه الوضم [ما تحفظ به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير] على التراب، ثم مرغه في رماد هَرَّاس [صانع هريسة]. وكان السبب لذلك، أنه كان ذلك الأمير يصبر ذلك القصاب في أداء ثمن اللحم الذي يأخذه منه إلى يومين، ثم يسلم له ثمن ما أخذه من اللحم، فأخلف ذلك الأمير العادة، وجعل يماطل بدفع الدراهم حتى صارت عليه لذلك القصاب ديون، وقد أخذ لحماً كثيراً حتى بلغ ثمنه خمسمائة محمدية. فلما كان من ذلك، جعل القصاب يرد رسله الذين يبعثهم إليه لأخذ اللحم منه، فغضب عليه، وصنع بلحمه ما صنع.

فلما صنع به ذلك، مضى القصاب إلى مولاه الشيخ سليمان بن ناصر الشقصي، وكان هو الكبير يومئذ على أهل الرستاق كافة، يغضبون إذا غضب، ويرضون إذا رضي، فشكا إليه ما جرى عليه، وقال له: إمض إلى بيتك، واصنع ما كنت تصنع من القصابة، فإذا أتتك رسله لا تردهم، واطو الخبر عن الخاصة والعامة. فمضى عنه، وفعل كما أمره به مولاه الشيخ سليمان بن ناصر.

امتناع الإمام عن إمامة الجمعة احتجاجاً على ظلم وقع على مواطن

وكان الشيخ سليمان بن ناصر إذا مضى يوم الجمعة إلى صلاة الجمعة مشى أهل الرستاق خلفه إلى مسجد البياضة الذي هو في كبد حصن الرستاق، وفيه يجتمع الناس لصلاة الجمعة. فلما كان يوم الجمعة تماسك الشيخ عن المسير للصلاة، وتماسك أهل الرستاق بتماسكه. فلما حان وقت الصلاة، هبط الإمام

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، الجزء الأول، ص 355 - 356. سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 387.

قال الشيخ للطاغية:
«الأمر لمن خلقك،
لا لك»

أحمد بن سعيد من الحصن إلى المسجد، فلم ير أحداً إلا عسكره من أهل الرستاق، فسألهم عن الشيخ سليمان بن ناصر وسائر أهل الرستاق، فقالوا: ما وصل منهم اليوم أحد إلى المسجد، فلما صلى الإمام بمن معه من العسكر وأهل السوق، أمر بالشد على الركاب والخيول، فشدت وسار بهم حتى وصل إلى الشيخ ناصر بن سليمان، فلما تصافحا باليدين أخذ الإمام بيد الشيخ، وجلسا ناحية عن القوم، فقال له الإمام: لقد أوحشت الناس أيها الشيخ بتخلفك عن الصلاة مع وجود صحتك، فما عندك من الشأن، أخبرني.

فأخبره عن صنيع أمير عسكر حصنه بالقصاب، فقال له: وهل عندك شيء غير هذا؟ فقال: لا، وإن هذا لشأن عظيم، فما عذرک بهذا الإهمال في رعيته، وهل يسعنا أن نصلي خلف إمام أهمل حق رعيته، فصاروا يُظلمون ويُهضمون، ومن يظلمهم ويهضمهم هو أمير على عسكر حصنه؟

فقال له الإمام: ما علمت بهذا الشأن إلا الآن.

فقال له: لو كنت متفقداً لأمر رعيته لما جرى عليهم مثل هذا.

فقال له الإمام: طب نفساً وقر عيناً. ففي غد إن شاء الله، ليأتيك الخبر عما تقر به عينك وتطيب به نفسك.

ثم مضى الإمام عنه بمن معه إلى الحصن، وانصرف الشيخ إلى بيته.

فلما كان اليوم الثاني بعث الإمام إلى أمير عسكر الحصن، فلما أتاه أظهر عليه الغضب، وقطب عليه الحاجب، وقال له: يا خبيث، ما الذي فعلت بالرجل القصاب؟ فتلجلج لسانه، وكان أن يموت من الفزع، فأمر عليه بالقيد والخشبة، فقيّد وخشّب، وألزمه بتسليم ما عليه من الحق للقصاب، فبعث إلى أهله بتسليمه.

مصير المتجبر إخمال الذكر

فلما حضرت الدراهم بين يدي الإمام بعث إلى القصاب، فلما أتاه، قال له: كم لك مع الذي صنع بلحمك ما صنع؟ فقال: خمسمائة محمدية. فقال له الإمام: ها هي ذي. فلما أخذها أتى على الإمام، ومضى من ساعته إلى مولاه الشيخ سليمان بن ناصر، فأخبره الخبر كله، ودفع الدراهم إلى مولاه إذ كان أقرضه إياها لما أتاه شاكياً من أمير عسكر الحصن.

فلما كان يوم الجمعة الثانية، مضى الشيخ إلى الإمام لصلاة الجمعة، ومضى

الآن قد طابت نفسي
على أمير عسكر
الحصن، فحسبه ما
أتاه، فتفضل بإطلاقه
من القيد والحبس

أهل الرستاق معه. فلما قضيت الصلاة، قال الشيخ للإمام: «الآن قد طابت نفسي على أمير عسكر الحصن، فحسبه ما أتاه، ففضل بإطلاقه من القيد والحبس». فقال له الإمام: «هيهات أن أطلقه حتى تمضي عليه سنة من يومنا هذا». فمكث في القيد والحبس سنة، ثم أطلقه الإمام، وعزله عن الإمارة والتقدمة على العسكر. فبقي في الرستاق كحال الذين لا يكثر لهم⁽¹⁾.

ودونك أهل المغرب، فقد ذكر أن رجلاً توفي في جبل نفوسة، واستخلف على ولد له رجلاً، فلما جاء وقت خرط الزيتون وصرامه، قام الخليفة فباع غلة زيتون اليتيم بأربعة دنانير، فسمع بذلك أبو مهاصر، فقام إلى المشتري فطرده، فولى بنفسه القيام على غلة زيتون اليتيم، فأخذ لها الأجراء، وأخرج نفقة اليتيم سنة، وباع البقية باثني عشر ديناراً، فعند ذلك قال الشيخ أبو مهاصر: من يسأل الله عن هذا: أنا أو أنتم يا نفوسة؟ وكان شكاه الخليفة إليهم، فقال في ذلك أبو صالح بكر [بن قاسم اليراسني]، وهو من علماء الطبقة الثامنة (350 - 400هـ / 961 - 1009م): «صار فعل أبي مهاصر هذا لمن خلفه مرآة ينظرون فيها إلى يوم القيامة»⁽²⁾.

وذكر أن خليفة الصبري عامل رجلاً من أهل وغلانة بمحضر من العزاب، فسافروا حتى بلغوا حيث شاء الله من الأرض، فاستمسك خليفة بمديانه فججده، واستحلفه فحلف، فلما وصلوا حيث شهوده حضر استمسك به إلى شيوخ وغلانة: عبد الأعلى بن يعقوب بن حمزة، فأخبرهم المدعى صنعا، وادعى خليفة أن له عليه بيعة يأتي عليه بها فيأخذ ما شهدت له به، وهو أحلفه، فتشاور الشيوخ في ما بينهم، وكان المنصور بن موسى بن يعقوب (ق 6هـ/ق 12م)، وردوا المسألة إلى عبد الله بن الأعلى، وقد عرفوا جوابه فيها، وهو أنه إذ حلفه وله بيعة وهي غائبة لم يشترطها. ن قد أخذ حقه إذا عرف بها، فقال لهم ابن عبد الأعلى: ماذا أقول له فيها وقد أحلفه، لم أر عليه حقاً بعد اليمين، فلما سمع بذلك خليفة شتمهم، ودعا عليهم بما أمكنه، والمسجد غاص بأهله ممتلئ، فلم يرد له الجواب أحد منهم إلا رجلان: واحد نهاء وقال له: إيه يا خليفة، والآخر قال: دعه، إن لم يتكلم هنا أين يتكلم إذن، وقد أمكن له أن يدعو ويقول⁽³⁾.

«دعه، إن لم يتكلم
هنا أين يتكلم إذن»

(1) حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى

عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص 313 - 314.

(2) أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 266 - 267.

(3) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 455.

وفي القضاء كانت لهم صولات من قول: لا، للحاكم، أسمعوه إياها بكل الألوان والألحان.

فهذا محكم الهواري، من أهل المغرب، قال ابن الصغير: «لما قال أفلح: قدموا خياركم، ثم أعلموني به حتى أجبره، أجمعوا على محكم الهواري، الساكن بجبل أوراس، فأخبروه بأنهم ارتضوه لدينهم ودينهم، ولخاصتهم وعامتهم. فقال أفلح: «هو كما ذكرتم في ورعه ودينه، ولكن نشأ في بادية، لا يعرف لذي القدر قدره، ولا لذي الفضل فضله. قالوا: لا نرضى لقضائنا غيره. وأشهدهم على أفلح في توليته أخوه أبو العباس. فلما رأهم لا يرضون غيره، قال: «أرسلوا إليه» (...).

فلما بلغه الرسول، توجه إليهم ونزل بالجامع. فأخبروه بما يريدون، وأنه إن تخلف فقد أعان على كل فرج يوطأ حراماً، وكل دم يسفك بغير حق، وكل مال يؤكل لا من حل، فاعتل أن الحق مر، ولا يقبل إلا بكره، وأنكم أبناء النعم، وغيري أصلح بكم، فأبوا. فقال: شاوروا الإمام. قالوا: «قد فعلنا»، فقبلها.

ونزل بدار القضاء، وسار فيهم السيرة التي أمّلها فيه. فبينما هو كذلك، تنازع أبو العباس ابن عبد الوهاب وصهر لأفلح في أرض، فارتفعا إليه، فسبق أبو العباس، فجلس مع القاضي في سقيفة الدار، وأدنى مجلسه وحادثه. فخرجت جارية القاضي، فاستسقاها. فوصل الخصم ورأى بعض ذلك، فوقع في نفسه أن خصمه بجنب القاضي يحادثه ويستسقي، وهو ملقى على باب الدار لا يلتفت إليه. وحدث أن لاحت من القاضي نظرة فرأه، فقال: «ما حاجتك؟» قال: «جئت خصماً لأبي العباس، فوجدته جالساً إلى جنبك، فجلست هنا». فأغضب القاضي ذلك، فقال لأبي العباس: «تأتيني خصماً وتجلس إلى جنبي وتستسقي جارياتي! يا غلام، خذ بيد أبي العباس وأجلسه إلى جنبي، ومر الجارية فلتسقه! ففعل الغلام. ثم إن أبا العباس - بعد انصرافه - شكاه إلى أفلح، فقال: «قد أعلمتك بهذا، ولكن الصواب فعل. ولو فعل غيره لكان مدهاناً»⁽¹⁾.

من صور القضاء المشرقة

ومن تاريخ قول: لا، للحاكم الظالم في تاريخ عُمان، كان الشيخ الفقيه أحمد بن مداد، من علماء الثلث الأوسط من القرن العاشر الهجري إلى ما يقرب نهاية القرن، صاحب «كنز الأجواد» و«خزانة العباد»، وقد عاصر الإمام

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 109.

قال القاضي: تأتيني
خصماً وتجلس إلى
جنبي وتستسقي
جارياتي! يا غلام،
خذ بيد أبي العباس
وأجلسه إلى جنبي،
ومر الجارية فلتسقه

محمد بن إسماعيل، فكان يبرأ من الحاكم ومن ولده بركات بن محمد، فيقول في سيرته:

«فمن ديننا الذي ندين به لله البراءة من محمد بن إسماعيل بجبايته الزكاة من رعيته بالجبر من غير حماية لهم، ومنع من الجور والظلم؛ لأنه قد جاء في آثار المسلمين المشهورة عنهم الصحيحة، ومن دين المسلمين أن لا يجبووا جزية ولا صدقة، حتى يكونوا على الناس حكاماً، ويمنعوا من جبووا من الظلم والعدوان، ومن دين المسلمين أن لا يعينوا جبايتهم يجبووا أرضاً لم يحموها، ولم يمنعوها.

وقال محبوب بن الرحيل: إنه ليس للإمام أن يجبي قوماً ولا يأخذ صدقاتهم، وهو لا يمنعهم من أن يجار عليهم، فإذا فعل ذلك فقد جار عليهم، ولا فرق بينه وبين أهل الجور الذين يأخذون منهم، وليس للإمام أن يأخذ من هؤلاء شيئاً، ولا يعقد عليهم لوال ولاية بلا حماية لهم ومنع، ومن دين المسلمين أن لا يجتمع خراج وزكاة في رعية واحدة (...)»⁽¹⁾.

وما كانت كل بيعة عندهم بيعة على بياض، وإنما هي بيعة مشروطة، إذا ما أخلَّ الإمام بما شرط عليه قيل له: لا. ومن هنا حديثهم عن «المبايعة على الجملة» و«المبايعة على التفسير».

المبايعة على الجملة والمبايعة على التفسير

وفي عهد إمامة راشد بن النظر حدثت مواجهة بينه وبين زبانيته من جهة وبعض كبار العلماء من جهة أخرى احتاج معها العلماء إلى قول: لا، صريحة. ويحكى لنا السالمي في تحفته وقائع ذلك فيقول: «قال أبو المؤثر: أرسل موسى إلى راشد بن النظر فبايعه على غير مشورة من المسلمين، وما حضره يومئذ أحد ممن يثق به لفتياً مسألة إلا ما شاء الله، قال: وقد كان فيما بلغنا بعضهم كارهاً لفعله، مشيراً بغير ما فعل، ولكن غلبتهم الكثرة. قال: وكان ساعد موسى فيما بلغنا فهم ابن وارث، وعبد الله بن سعيد، وهما غير أمينين ولا رشيدين. قال: فلكما استوليا على الأمر، دخل داخل على راشد، فقال راشد: إنصحوني فإنني أقبل النصيحة، فظن أنه عند قوله، فقال له الناصح: أرسل إلى نفر من المسلمين لم يكونوا شهدوا أمر موسى وراشد، وهما خيار أهل بلدهم، معهم شيء من علم وفقه،

(1) سرحان بن سعيد الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، تحقيق: محمد حبيب صالح ومحمود بن مبارك السليمي، وزارة التراث والثقافة، الطبعة الأولى، 1433 هـ/2012م، الجزء السادس، ص28.

من دين المسلمين
أن لا يجبووا جزية ولا
صدقة، حتى يكونوا
على الناس حكاماً،
ويمنعوا من جبووا
من الظلم والعدوان

فقال له: أرسل إليهم، فإذا اجتمعوا عندك فقل لهم: إني قد دخلت في هذا الأمر، فإن كنت مصيباً فأعينوني ووازروني، وإن كنت مخطئاً فتوبوني، فقال له: أكتب هذا الكلام في كتاب وأملاه على صاحبه، يقال له: عمر بن عباد، فلما فرغ مما يريد من نصيحة أطلع موسى على ذلك الكتاب، فرد تلك النصيحة، ولم يرض رأي المسلمين، قال: فلما رد موسى النصيحة قال لهم قائل: إن الإمامة لا تقوم بمشاورة أهل الإحن، ولا بأهل المعصية، ولا سفك الدم، ولا بأهل أطماع؛ فغضب موسى على أهل العلم واستخفهم، قال: ثم أتى من أتى قبلهم إلى الذي أهدى إليه نصيحته جند من جند الشيطان فأخافوه وأرعبوه، ودخلوا منزله فكف الله شرهم وبأسهم. ثم إنه أتى إلى راشد فما استتاباه من ذنب، ولا لزمته عندهما عقوبة، إلا أن قالوا له: بايع، فقال لراشد: أبايك على كذا وكذا، شروط لله على الأئمة لم يكن موسى يبصرها ولا يعلمها، فأبى راشد أن يبايع على ذلك، وقبض كل واحد منهما على بيعة، فقال جلساء السوء بايعه على الجملة، وقبض كل واحد منهما على غير بيعة، فقال جلساء السوء بايعه على الجملة، فقال الرجل: لا، لكل زمان حكم، ولا أبايه إلا على التفسير، قال: وهم لا يعلمون تفسيراً ولا جملة لو سئلوا عن ذلك لم يهتدوا...»⁽¹⁾.

قال جلساء السوء:
بايعه على الجملة،
فقال الرجل لا،
لكل زمان حكم،
ولا أبايه إلا
على التفسير

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، الجزء الأول، ص 216 - 217.



كتاب البساطة الطوعية

أو كتاب الورع

«من تورع فلا يتسع».

من الحكم التي رواها أبو زكرياء ابن الشيخ جعفر.

يحكى عن الحكيم الإغريقي ديوجين أنه لم يبن داراً ولا اتخذ سكناً، وكان يأوي إلى دن (برميل)، وكان يشتمل بكساء، ولم يتخذ لنفسه غيره [يخدمه]. ومر به الإسكندر المقدوني - وهو من هو في زمنه - فقال له الملك: «أنت عبد لي»، قال ديوجين: «وأنت عبد لعبدي»، قال الملك: «وكيف ذلك؟»، قال الحكيم: «لأنني رجل أملك شهوتي المردية، وأنت لا تملك شهوتك، فأنت عبد عبدي». قال له الملك: «فما الذي حملك على اتخاذ الدن مؤثلاً؟»، قال الفيلسوف: «قطعت على نفسي مؤنة كل دثر»، قال الإمبراطور: «فإن انكسر الدن؟» قال الحكيم: «هناك المكان».

وقد عرض عليه الإسكندر، وقد وجده يتشرق [يتشمس] في الشمس: «اطلب ما تريد: فيلاً؟ أم قصرًا؟ أم بيت أشراف؟» فكان أن أجابه: «تنح عن شمسي، فقد حجبت طلعتك عليّ الشمس».



كثر الحديث في الآونة الأخيرة على ما أمسى يسمى في بعض الأدبيات «البساطة الإرادية» أو «الفقر الطوعي» أو «الزهد الاختياري». ومعناه أن يحيا المرء حياة بساطة بإرادة منه وأمر ابتغاء، لا بفقر مسلط عليه أو بظرف أحواله. وذلك بحيث يعيش حميداً قانعاً، ويموت كريماً راضياً. وقد ذكروا فلاسفة وحكماء كانوا نماذج لهذه البساطة الرغبية الإرادية الطوعية الرضائية، من أمثال الفيلسوف القديم ديوجين الكلبي، والفيلسوف الأمريكي الحديث دافيد تورو، ونسوا، كعادتهم في ذلك، وليس العيب فيهم وإنما العيب فينا نحن يا من لا يعرف تراثه ولا يعرف به، أن يستشهدوا بتجارب حكمية عربية في الحياة بديعة فريدة.

الخليل بن أحمد الفراهيدي مثال البساطة الإرادية

وأول من اتخذ طريقة البساطة الإرادية هذه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو الرجل الفقير لكنه الذي كان يقول: «إني لأغلق عليّ بابي، فلا يتجاوزه همي»، والذي قال عنه السيرافي: «وكان من الزهاد في الدنيا، المنقطعين إلى العلم». فقد قال تلميذه ابن النضر: أقام الخليل في خص [بيت من قصب] له بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال. وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ولقد كان سليمان بن حبيب بن المهلب والياً على السند، فأرسل إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي يطلبه لتأديب ولده، فأخرج خبزاً يابساً، وقال: «ما عندي غيره، وما دمت أجده، فلا حاجة لي بسليمان»، فقال الرسول: «فما أبلغه عنك؟» فقال:

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة وفي غنى غير أنني لست ذا مال
سخي بنفسي أنني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

وكان سليمان رتب له راتباً، فقطعه عنه، فقال:

إن الذي شق فمي ضامن لـرزق حتى يتوفاني
حرمتمني مالاً قليلاً فما زادك في مالك حرمانني

قال الفراهيدي:
إني لأغلق
عليّ بابي، فلا
يتجاوزه همي

وقد وصفه أبو حيان الأندلسي وصوّر نمط عيشه ومحياه في قصيدة مدح، كان مما ذكره:

وأكثر سكناه بقفر بحيث لا تناغيه الأعضرة وأوابده
وما قوته إلا من شعير يسفه بماء قراح ليس تغشى موارده
عزوفاً عن الدنيا وعن زهراتها وشوقاً إلى المولى وما هو واعدته

في ضيافة البساطة الطوعية

وصار العديد من حكمائنا هؤلاء مضرب المثل في الزهد، وذلك شأن الشيخ محمد بن محبوب بن الرحيل الذي كان «مضرب المثل في العلم والزهد والتقوى». كما كان مضرب المثل في الورع، حتى كان إذا ما شهد رجل شهادة، يقولون: «حتى يكون مثل محمد»، لا يصدقون بذلك⁽¹⁾. وشأن الشيخ مداد بن محمد بن مداد، من علماء القرن التاسع الهجري، كان يصفه معاصروه بالزهد⁽²⁾. وشأن الشيخ موسى بن محمد الكندي الذي يظهر في شعره الكثير من التصوف والزهد والمواعظ، لا سيما في كتابه «جلاء البصائر في الزهد والمواعظ والروايات»⁽³⁾. وذكر غير واحد أن أبا معروف ويدرن بن جواد (عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي من الطبقة السادسة (250 - 330هـ / 864 - 912م)، وهو من علماء جبل نفوسة، كان يتجر في حانوت، فكان دأبه إذا وزن للناس أوفى من ماله خروبة، وإذا أراد أن يأخذ منهم لنفسه أنقص خروبة، فلما حضره الموت أوصى بعشرين ديناراً لحوطة الميزان⁽⁴⁾.

وهذا أبو محمد عبد الله بن مانوج اللمائي الهواري (من علماء الطبقة التاسعة (450 - 500هـ)، يضرب به المثل في البساطة الطوعية والقناعة الإرادية والزهادة في الدنيا وعدم التعلق بعلائق الحياة حتى ذكر أنه لم يستلف من أحد شيئاً قط غير دينار واحد استسلفه مرة ورد به بعينه إلى الذي استسلفه منه، وليس منه هذا استغناء بل رضى بما قسم الله له، قال الدرجيني: ومع قلة ماله، فإن ضيافته لا تزال حفيظة لا فضل عليها لضيافة ذوي اليسار⁽⁵⁾، وقال

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 251 - 252.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 44.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 167.

(4) أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 243. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 328.

(5) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 401.

قال الدرجيني: ومع
قلة مال الهواري،
فإن ضيافته لا تزال
حفيظة لا فضل عليها
لضيافة ذوي اليسار

عنه الوسياني: كان رجلاً عالماً فقيهاً ورعاً زاهداً ذا جد واجتهاد ذا نية حسنة...» وذكر أن ما فعله كان من باب «كثرة القناعة بما أعطاه الله (وهو الفقر الطوعي بعينه)، لا لكثرة العرض والمال» وأضاف: «ومع هذا قيل في ضيافته: ليست كضيافة الناس»⁽¹⁾.

وكان أبو محمد عيسى بن محمد الملشائي، من زهاد وعلماء جبل نفوسة، فقيراً صابراً. يجوز الناس عليه بالتين، وهو يخدم نفسه بيده، فيعرضون عليه أن يأكل، فيقول: «الأشجار محمّرة بالتين، فيخدم في فدانه بزج رمحه حتى يحمى النهار، ثم يأكل لقلة ما بذات اليد، وكان يعيب على ابنه وزوجته كثرة رغبتهما في الدنيا، ويدعو إلى الزهادة فيها»⁽²⁾. وذلك مع أنه كان قوياً إذا أجر نفسه للحصاد تسابقت الأجراء جنبه لكثرة حصاده. وعزق فدادينه بزج رمحه، وغرسها، وكان يحفظ الغرس بالماء. ومن مر من أهل فرسطاء إلى السوق يشرب ويتوضأ للصلاة، وكان يختم القرآن كل يوم وهو يعمل أشغاله⁽³⁾.

وكان أبو موسى، من أهل أتلجام، من شدة ورعه وكثرة تحفظه، إذا ما أراد أن يحرث الأصل [أسفل الجبل]، استأذن زوجته لكونه أصدقها بعضه، ولم تكن قبضته بعد، وتقول: «يا شيخ، أُولم أجعلك في حلّ بعد! ويقول لها: جزت اليوم على كرمتنا يا فلانة محمرة بالتين، فنقول له: «إلى متى يا شيخ وقد جعلتك في حل؟»، فيقول: «خشيت تغير قلبك»⁽⁴⁾.

ومن علماء عُمان الشيخ عامر بن خميس المالكي. يروى من ورعه أنه كان لا يشعل السراج الذي في المسجد إلا في وقت الصلاة والتدريس، أما في حال قراءته بنفسه، فيشعل السراج الخاص به لئلا يأخذ مالا بغير حق، ولو كان قضيياً من أراك. (أورده صاحب النمير).

يرد الهدايا إلى بيت مال المسلمين

ويروى أن الشيخ أبا زيد عبد الله بن محمد الريامي رد الهدايا التي أهديت لأقاربه إلى بيت مال المسلمين. فقد أهدى أحد الأعراب لابنه مطية - أي ناقة -

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 769 - 770.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 266 - 267.

(3) المصدر نفسه، ص 267 - 268.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 290.

كان الشيخ عامر لا يشعل السراج الذي في المسجد إلا في وقت الصلاة والتدريس، أما في حال قراءته بنفسه، فيشعل السراج الخاص به لئلا يأخذ مالا بغير حق ولو كان قضيياً من أراك

فأدخلها الحصن حيث يسكن أبوه، وأخذ يطعمها مع جمال بيت مال المسلمين، ولم يعلم بذلك الشيخ إلا بعد أيام عندما أخبر أن ولده أعطي مطية، وهي تأكل من بيت المال، فقال الشيخ: هذه المطية لبيت المال، وليس لمحمد، فمحمد لم يعط هذه المطية إلا لكونه ابن عبد الله بن محمد، واعطيت طعامها من بيت المال، وترجع إليه. (أوردها صاحب النمير).

ولعمري، فإن هذا ما صار يحدث في البلدان الغربية حيث يترك الرئيس كل الهدايا التي حصل عليها أثناء أدائه لمهامه لخزينة الدولة.

صور من الورع

ويروى أن العلامة صالح كان يصلي في مسجد بني عبد الرحمن المعروف بمسجد غليفتا. وفي هذا المسجد كان يعتكف لطلب العلم والتأليف حتى قيل: إن كتابه المسمى «حقائق الإيمان في الأديان والأحكام»، وهو ما يقرب من اثني عشر مجلداً كتبه في هذا المسجد. ومن نزاهته أن الزيت الذي كان يستضيء به للكتابة أو القراءة في هذا المسجد كان من ماله الخاص، بل تجده يدفع ضماناً ليبرئ نفسه من الخطأ والزلل. (أورده صاحب النمير).

ويروى أن العلامة أبا سعيد محمد بن سعيد الناعبي الكدومي كان يحرق بثور في الضاحية التي هي بجانب المسجد الذي ينسب إليه. فكان إذا أراد أن يحرق يلبس الثور جورباً خشية أن يحمل الثور في حافوره تراباً من تلك الناحية. وكان عندما ينتهي من الحراثة في تلك الضاحية ينفض ويهز الجورب لكي لا تحمل معها التراب، وهكذا يعمل عندما يريد أن يحرقها مرة أخرى. (رواه صاحب النمير).

يبدأ الزهد والبساطة الإرادية من البيت. فقد روي أن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي كان منزله منزلاً متواضعاً به سبلة، وحجرتان، مساحة الحجرة الواحدة بقدر ما يمد الإنسان جسده.

ثم في ما يملكه الإنسان من الزرع:

يحكى من ورع الشيخ الفقيه الزاهد راشد بن سعيد بن راشد الجهضمي وابتعاده عن الشبهات أنه ذات يوم جاءه البیدار الذي يسقي أمواله، فقال له: إن الضاحية شربت في هذه الليلة أكثر من العادة؛ لأن صاحب الماء الذي يرد على الضاحية نام عنه ولم يرده، فقال للبیدار: امض واقطع من كل نخلة قالباً

من نزاهة العلامة
صالح أن الزيت
الذي كان يستضيء
به للكتابة أو القراءة
في هذا المسجد
كان من ماله الخاص،
بل تجده يدفع
ضماناً ليبرئ نفسه
من الخطأ والزلل

واحدًا، وهو أعلى سعفة تكون في النخلة، فمضى البيدار وفعل ما أمر به، ثم صار الشيخ يتصدق بثمره تلك النخل سنوياً إلى أن صار ذلك القالب سعفة لا تثمر⁽¹⁾.

ثم يمتد إلى استعمال ممتلكات الدولة:

ومنه أن الإمام أبا اليقظان بن أفلح - على عهد الدولة الرستمية - يحكى أنه من ورعه وتقشفه أن خديمه أبا سابق علف ليلة فرسه من بيت المال، فأعلمه، فقال: «ما هذا يا أبا سابق؟» وحلف لا قام، ولا أكل، ولا شرب، حتى ترد في بيت المال. فنزع أبو سابق عن الفرس، وكمل ما نقص من أكل الفرس من ماله، وردّه من حينه، فما برح حتى رجع أبو سابق، فأعلمه، فقال: «الآن أحسنت»⁽²⁾.

وقال الشيخ الفقيه سعيد بن محمد النزوي في سيرته إلى أهل المغرب: «فهذه سيرة أئمتنا الأولين وسيرة إمامنا ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب بن سلطان اليعربي الرستاقى ثم النزوي رحمة الله عليه وروحه وريحانه ومغفرته ورضوانه عظيم شأنه كريم مكانه قوي سلطانه عزيز وجوده متواترة سعوده بالمؤمنين رؤوف رحيم ليس بفظ ولا غليظ كثير الذكر قليل اللغو لا يستنكف أن يمشي مع العبد والمسكين وهو ملك في زي مسكين رؤوف القلب كثير الحياء واسع الصدر طويل الحزن عظيم الرجاء قليل المن كريم الوفاء أمين الله كاتم السر وكاظم الغيظ جليل العطاء لين الجانب قليل الأذى الهدى عظيم الرجاء تراه حليماً ودوداً مضافاً كريماً قائماً بأمر الله موفياً بعهد الله ملتماً رضوانه قاطعاً للشهوات غافراً للعثرات كاتماً للمصيبات خاشعاً منيباً شريف الهمّة حبيب الفقراء غريباً بين أهله جميل الفطنة تقي الأتقياء...»⁽³⁾

ويروى من فضائل الإمام ناصر بن مرشد اليعربي أنه كان يعطى نفقة له ولعِياله من بيت المال، ولم تكن لهم قدر يطبخون فيها طعامهم، فكانت زوجته تنقص من النفقة يسيراً يسيراً، حتى باعته، واشترت به صفرية (قدر للطهي مصنوع من النحاس)، فلما رآها الإمام سألتها: من أين لك هذه الصفرية؟

(1) البطاشي، إتحاف الأعيان، الجزء 3، ص 182.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 146.

(3) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان، المجلد الثاني، ص 22.

الإمام ناصر بن
مرشد ملك في زي
مسكين رؤوف
القلب كثير الحياء
واسع الصدر طويل
الحزن عظيم الرجاء
قليل المن كريم
الوفاء أمين الله كاتم
السر وكاظم الغيظ
جليل العطاء لين
الجانب قليل الأذى
سراج الهدى
عظيم الرجاء

فأخبرته بما صنعت، فقال لها: إستعملها، وهي لبيت المال، وأمر وكيل الغالة أن ينقص من نفقتهم قدر ما كانت هي تنقصه⁽¹⁾.

وخذ بنا إلى الشيخ العُماني أبي سعيد الكدمي، أحد أكبر فقهاء عُمان على الإطلاق، أكاد أقطع في هذا ولا أستثني، وصاحب الكتابين المرجعين في قواعد الفقه الإباضي، كتاب «الاستقامة» وكتاب «المعتبر»، حتى أن شيخه سعيد بن ناصر الكندي لما وقف على قصيدة تلميذه في الولاية والبراءة ووقف على بيتين يمدحه فيهما، قال: «يكفينا منك كتاب الاستقامة». فهذا الرجل يعتبر من ورعي عُمان الكبار. فقد ذكر العلامة نور الدين السالمي أنه قيل: إن أبا سعيد هذا كان خازناً على المحبوسين، منذ أن بلغ الحلم، وكان لأبي سعيد يومئذ نخلة وخمرة، وهي شجرة العنب، فقيل: إنه كان يأكل من ثمر النخلة بلا خبز، ولا حلاء، وله ثلاث نسوة موسرات، لا يأكل من مالهن شيئاً، وقد أخذنه لأجل علمه. ويضيف العلامة معلقاً: وأحسب أنه كان يقسم ثمرة النخلة على السنة، والخمرة للكسوة فيما قيل. هذا هو الزهد لمن عقله، هذا خازن السجنين، فما ظنك بأمراء الجنود، وولاة القرى، وقضاة الأحكام، بل ما ظنك بالإمام⁽²⁾.

وقد هزت أريحية هذا المتبسط المتطوع العلامة نور الدين السالمي فنظم هذه الأبيات الثلاثة في ورع الشيخ وفقره الإرادي:

أبو سعيد نخلة وكرمة	يملك كان شاكرًا للنعمة
منها طعامه ومن كرمته	ثيابه لا من غنى زوجاته
كانت له الزوجات معها المال	يعف عنه وهو الحلال

من صور حياة البساطة الطوعية

ومع حياة البساطة الطوعية التي كان يحيها، كان الرجل سخيًا بما عنده، كثير المساعدة للمحتاجين وللفقراء. وقد حكى عنه أنه كان قد لزم إنساناً له دين على رجل، فلم يجد شيئاً، فجرى خلاصه على يد الشيخ الكدمي، فكان هو الذي يسلم إليه المال شيئاً بعد شيء ويرده إليه إلى أن استوفى صاحب المال دينه.

(1) سرحان بن سعيد الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، تحقيق: محمد حبيب صالح ومحمود بن مبارك السليمي، وزارة التراث والثقافة، الطبعة الأولى، 1433 هـ/2012م، الجزء السادس، ص75.

(2) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، المجلد الأول، ص277. وسيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص282 - 283.

كان لأبي سعيد نخلة
وخمرة، وهي شجرة
العنب، فقيل: إنه
كان يأكل من ثمر
النخلة بلا خبز، ولا
حلاء، وله ثلاث نسوة
موسرات، لا يأكل من
مالهن شيئاً، وقد
أخذنه لأجل علمه.
ويضيف العلامة
معلقاً: وأحسب أنه
كان يقسم ثمرة
النخلة على السنة،
والخمرة للكسوة
فيما قيل. هذا هو
الزهد لمن عقله،
هذا خازن السجنين،
فما ظنك بأمراء
الجنود، وولاة القرى،
وقضاة الأحكام، بل
ما ظنك بالإمام

ونحو هذا ما يحكى عن أبي الحواري أنه كان فقيراً لا يأكل ثمر الأثب زهداً وتعففاً (والأثب شجر على الأودية وعلى جوانب الجبال وهو غير مملوك) وربما قبل بعض صدقة إخوانه فيبيعها ويشترى بها نفطاً للسراج.

ونحوه ما يوجد في بعض آثار علماء عُمان أنه بخط يحيى بن أبي زكريا قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن عمرو بن أبي الأشهب أنه كان بقرية منح رجل عفيف له نخلة واحدة، وكان يغدو إلى خارج البلد يصلي ما شاء الله، فإذا أراد أن يعود حمل قفيز سماد فجعله تحتها، فإذا حملت فأدركت عد ثمرتها وقسمها على السنة، وجعل لكل يوم شيئاً معلوماً يأكله بلا إدام ولا خبز، وكان ذلك دأبه ولا يأكل غيرها، وكان أبداً صائماً حتى مات⁽¹⁾.

وكان الشيخ ابن النظر قد ذكر في القناعة والعفة والزهد والبساطة الطوعية والفقر الإرادي:

رضوا من الدنيا بقوت الأكل وفارقوا الغيد ذوات الكلل
لم تختبلهم بالعيون النجل ولا بفضفاض نعيم دغفل
ولا سماع من غناء زجل صم عن اللهو وقول الهزل

التورع الشديد في استعمال المال العام

وهذا الشيخ العالم الفقيه الزاهد درويش بن جمعة بن عمر المحروقي (1020هـ/1611م - 1086هـ/1667م)، وهو من علماء القرن الحادي عشر الهجري، ومن قضاة الإمام سلطان بن سيف بن مالك، كان على جانب كبير من البساطة الطوعية، جمع بين الزهد والورع والنزاهة والتقلل من الدنيا. وقد روي أنه ذات مرة جاء إلى نزوى أيام الإمام سلطان، وأن الإمام أتى بشيء من الحلوى وأعطاه إياه ليأكلها في الطريق، وكانت الحلوى قد وضعت في ظروف صغيرة من سعف النخيل تسمى «تغالييف»، فما كان من الرجل الورع إلا أن أكل منها في الطريق ما يكفيه راجعاً إلى بلده، وكان أن بقيت منها بعض بقية، فأرجعها إلى الإمام بحجة أنها من بيت مال المسلمين، وأنها فضلت عن الزاد⁽²⁾. فتأمل!

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، الجزء الأول، ص 277 - 278.

(2) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 169.

فما كان من الرجل
الورع إلا أن أكل
منها في الطريق ما
يكفيه راجعاً إلى
بلده، وكان أن بقيت
منها بعض بقية،
فأرجعها إلى الإمام
بحجة أنها من بيت
مال المسلمين، وأنها
فضلت عن الزاد

ودونك الإمام سالم بن راشد الخروصي، فقد ذكر الشيخ سيف بن محمد الفارسي في حياته، كيف أن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي تحدث عن ورعه، فقال: «كنا معه ذات يوم سفر وأنخنا في واد وفُرب لنا التمر، فرأينا الإمام لا يلقي النوى وإنما يجمعه في غلافة ويتركه في جانب عمامته. فقلنا له: كيف فعلت هذا؟ فقال: هذا واد وأخاف إن تركته يحمله الوادي ثم يستوي نخلاً ويحجز الوادي أو يحيله إلى جهة ثانية، ويسألني الله عن ذلك. قال الراوي: ونحن لم نحتفل لذلك». (أورده صاحب النمير).

وقد ذكر عن أبي الشعثاء أنه من شدة ورعه أن دعاه رجل إلى طعام ودّه به. فلما غسل تذكر أن له عليه شهادة، فأبى من الأكل، وقال المضيف: وهبته لك، فأبى، فقال: تركت شهادتي، فأبى، فقال: تركت ذلك المال أجمع، فأبى، ثم بعد ذلك أعطى لذلك الرجل دراهم يعمل له طعاماً مثل ذلك الطعام، فلما صنعه، دخل الشيخ ونزع الغطاء، وقال: كله أنت وعيالك! فخرج وقال: إنما أفسدت مالك بسببي⁽¹⁾.

نماذج من حياة البساطة الطوعية

وذكر في روايات أبي مرداس مهاصر السدراتي (من علماء الطبقة الخامسة: 200 - 250هـ/815 - 864م)، أنه قدم تاهرت، وعادته إذا حصد الناس زروعهم، ولقط اللقاطون السنابل، ورعوا مواشيهم، عقبهم أبو مرداس، فيلتقط نفقة سنة، لأن ذلك متروك⁽²⁾.

ومن أهل المغرب أيضاً أبو ميمون الجيطالي الذي ذكره الدرجيني في طبقاته، فقال عنه واصفاً حال البساطة الإرادية التي كان يحيا عليها: «وكان ممن يعد في الشيوخ، وممن قدمه في العلم ذا رسوخ، وكان ذا تفقد لمواضع المعروف، وذا إيثار، على ما كان عليه من الإقلال والإقتار»⁽³⁾.

وفضلوا حياة الشغل والعمل على حياة التواكل والانتظار، فقد نقل صاحب النمير من مجموع مخطوط (240) بمكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 177. وانظر أيضاً: أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 250 - 251.

(2) أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، ص 259. الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 293.

(3) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 293 - 294.

كان الإمام لا يلقي النوى وإنما يجمعه في غلافة ويتركه في جانب عمامته. فقلنا له: كيف فعلت هذا؟ فقال: هذا واد وأخاف إن تركته يحمله الوادي ثم يستوي نخلاً ويحجز الوادي أو يحيله إلى جهة ثانية، ويسألني الله عن ذلك

كيف كان العلامة الفقيه ناصر بن أبي نبهان الخروصي يذكر العلامة علي بن سليمان العزري ويقول فيه: «إنه حاز الفضائل، وهو أفضل من إخوانه في أهل زمانه؛ لأنه أعمى وتسبب لمعيشته وكسوته من كد يده وعفّ عما سوى ذلك وجعل مدرسة لإخوانه».

وما زالوا يلحون على الورع حتى عدوا الموتة الورعة أهناً ألوان الموت. فقد ذكر في ترجمة العالم الورع السموح الفاضل الخيار بن سالم العُماني السمائي الذي عاش أيام أحد كبار حكماء الإباضية الصحابي التابعي مسلم بن أبي كريمة. قال أبو سفيان: كان رجل من المسلمين يقال له: الخيار بن سالم، من طي من أهل عُمان، وكان فاضلاً، وكان يقول لأبي عبيدة: إذا جاوزت أهل البصرة، فانا أفضقه منك، ولو كنت شريفاً ما أجابك أحد، أنت تشدد على الناس، فيضحك أبو عبيدة من قوله. قيل له: أوص؟ فقال: بماذا أوصي، ما عليّ درهم، ولا لي على أحد درهم، فكانوا يقولون يا لها من موتة كموتة خيار⁽¹⁾.

ميّنة البساطة الإرادية

ولقد صدقوا في ما قالوا: يود المرء الورع لو يخرج من هذه الدنيا كفافاً لا له ولا عليه. وقد تحوط الكثير من الزهاد ومن أهل الصوفية من المعاملة بالنقود، فكان بعضهم لا يلمسها، أو يلمسها من وراء كفه، استكراهاً لها ونفوراً من أفاعيلها ببني البشر، وكان بعضهم يرى أن «الدرهم» إنما سمي بهذا الاسم لأنه «دار الهم»، وبالمثل، أن «الدينار» إنما سمي بذلك لأنه «دار النار»، وما أبعد هذا المشتق لهذين المعنيين، عند الصوفية، روحاً ومعنى، وإن أبعد هو لفظاً واشتقاقاً... فكان يحتاط من فتنة الدرهم والدينار بأشد احتياط يكون. على أنه لا بدّ منهما، وتلك مأساة البشر الجشع.

وقد ربطوا بين ورع الشخص وقبول شهادته. ومن أنبل ما يحكى بهذا الصدق أن بعض الحكام سأل معداً عن رجل عنده شهادة في دعوى هل يقبل شهادته؟ فقال: لا أعدله. فسأله الشاهد: لماذا؟ فقال: إن في بيتك ثلاثين لصاً، يسرقون بيوت الناس وزروعهم. لقد رببت ثلاثين طائراً من الحُقم، يأكل من بيوت الناس وزروعهم⁽²⁾. ومهما تكن من مبالغات قد تطال مثل هذه الحكايات،

قيل: إن «الدرهم»
إنما سمي بهذا
الاسم لأنه «دار
الهم»، وبالمثل، أن
«الدينار» إنما سمي
بذلك لأنه
«دار النار»

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 216.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 298.

فإنها إن هي دلت على شيء، فإنما تدل على تورع الناس في معرفة من أين معاشهم الذين يعتاشون به.

وعلى الضفة الأخرى من العالم الإسلامي كان يحيى أبو زكريا كثيراً ما يوصي الطلبة بالبساطة الطوعية التي هي الغنى لا الفقر، فيقول لهم: «إياكم والتسارع إلى قبول صنائع الناس وهداياهم، فإنه قيل: «كن عبداً لله ولا تكن عبداً للناس»». وكان ينشد في ذلك:

ولست وإن قربت يوماً ببائع لديني وأخلاقني رجاء التقرب
ويعتاده قوم لقوم تجارة ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وكان يضيف: «كما قيل: إترك الطمع يتركك الفقر، واحمل نفسك على مالك يحملك، وارض بقليل الرزق يرض الله عليك بقليل من العمل»⁽¹⁾.

قيل: إترك الطمع
يتركك الفقر، واحمل
نفسك على مالك
يحملك، وارض
بقليل الرزق يرض
الله عليك بقليل
من العمل

(1) الدرجيني، طبقات المشايخ، الجزء الثاني، ص 449.



كتاب إيثار التواضع وحب الخمول

«واخدم نخلتك بنفسك، يبارك لك الله فيها».

نصيحة من المشايخ إلى الشيخ أبي الربيع



عجيب حقاً أمر هؤلاء العلماء والمشايخ العُمانيين، ولله درهم، لا تكاد تجد لهم زهواً ولا ادعاءً ولا عُجباً، ولا توشك تجد عالماً عُمانياً إلا وأعلن تواضعه الشديد، ذاك دأبهم وديدتهم إلى اليوم، شعارهم في ذلك دعاء داعي التواضع: «اللهم إن الغمرة أحب إليّ من الشهرة»، موثرين الخمول على الظهور، والانغمار على الاشتهار. وأنت لن تجد العالم العُماني إلا مدعياً أنه إنما هو «متشبه» بأهل العلم وهو العالم حقاً، يكاد من جم أدبه ألا يؤلف وهو المؤلف بحق، معذراً بأشد اعتذار يكون إلى قارئه على تجرئه المدعى، ملتمساً إقالة عثرته الموهومة، طالباً ستر هفوته المتخيلة، وذلك حيث لا عثرة ولا هفوة...

فأنت عاثر على عشرات العلماء يتواضعون، وهكذا التواضع بالشريف يليق.

هذا الخليل بن أحمد الفراهيدي قال أيوب بن المتوكل: «كان إذا أفاد إنساناً شيئاً لم يُره بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئاً أراه بأنه استفاد منه». وقال تلميذه النظر بن شمیل: «ما رأيت أحداً يُطلب إليه ما عنده أشد تواضعاً منه». هو ذا طراز هؤلاء القوم الذي نسجوا عليه. قال تلميذه النظر بن شمیل: «أقام الخليل في خص [بيت من قصب] له بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال».

وهذا الشيخ سلمة بن مسلم العوتبي صاحب كتاب «الضياء» - وهو عالم لغوي ونسابة عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بصحار - وقد ذكر في خطبة موسوعته الفقهية هذه تواضعه الجم، فقال بعد البسمة والحمدلة: «أما بعد، فهذا كتاب دعاني إلى تأليفه، وحداني إلى تصنيفه، ما وجدته من دروس آثار المسلمين، وطموس إيثار الدين، وذهاب المذهب ومتحمله، وقلة طالبيه ومنتحليه، فرأيت الإمساك عن إحيائه، مع القدرة عليه، ووجود السبيل إليه، ذنباً وشؤماً، وذماً ولؤماً، فألفته على ضعف معرفتي، ونقص بصيرتي، وكلة لساني، وقلة بياني، طالباً للأجر لا للفخر، وللتعلم لا للتقدم، وللدراسة لا للرياسة، غير مدع للعلوم تصنيفاً، ولا مبتدع للفنون تأليفاً، ولكن لأحيي به نفساً، وأفزع إليه أنساً، وأرجع إليه فيما أنسى، ولأستصبح بضيائه مهدياً، وأصبح بما فيه مقتدياً، إذ التشكك معترض، والنسيان ذو عنون، والحفظ خؤون، ولكل شيء آفة، وآفة الحفظ النسيان. قال ابن عباس: «إنما سمي الإنسان إنساناً لأنه ينسى». قال: «وسمي آدم صلى الله عليه وسلم إنساناً، لأنه عهد إليه فتنسى».

وقال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما القلب إلا أنه يتقلب

كان الخليل بن أحمد
الفراهيدي إذا أفاد
إنساناً شيئاً لم يُره
بأنه أفاده، وإن
استفاد من أحد شيئاً
أراه بأنه استفاد منه

وقال الطائي:

لا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنساناً لأنك ناسي⁽¹⁾

ولم يكن العلامة الخطيب عبد الله بن محمد بن عامر الهنائي الخراسيني النزوي يدعي العلم، وما كان يتردد في أن ينصح القارئ بأن لا يأخذ من كلامه إلا ما كان موافقاً للحق، وعندما كان يشك في نسبة الصواب في رأي ما، وعندما كان لا يطمئن إلى اجتهاده - وليس يطمئن إلى اجتهاده إلا عقدي قطعي - يقول دون تردد: «وهذا مني على الظن لا على التحقيق، فإن كان موافقاً وإلا فجزى الله خيراً من ينكره عليّ ويصلحه لأني ضعيف البصيرة». (أورده صاحب النمير نقلاً عن الشيخ عبد الله الخراسيني: فواكه العلوم: 15/1).

وهذا الشيخ محمد بن وصاف - وكان بزاراً بسوق نزوى - يعمد إلى ديوان الشيخ العُماني الفقيه الشاعر أحمد بن النظر السمائي - المدعو اختصاراً «ابن النظر» - فيجمع ما وجده منه، ويسمي جمعه هذا «كتاب الدعائم»، ويضع عليه شرحاً مختصراً يسميه «الحل والإصابة»، ويقول في المقدمة: «(...) فلما رأيت أن هذا الكتاب من أجل الكتب، وما فيه من كثرة العلم والأدب، قد استولى عليه التبديل والتصحيف، وقلب الكلام والتحريف، شحذت فيه خاطري وفكري، مع قلة علمي وبصري، وفسرت منه ما يخفى على المتعلمين الناشئين، المقلين من العلم، ولم أجعله لمن علت درجته في العلم، وسبقت منزلته في الأدب والفهم، وكل ما فسرته، فمن بطون الدفاتر، وسؤال أهل البصائر (...)»⁽²⁾.

وهذا مقدم مؤلف «شرح القصيدة الحلوانية للشيخ القلهاتي» من تأليف الشيخ عادي بن يزيد البهلوي - عالم الأنساب من علماء النصف الأول من القرن السابع الهجري - وهو من هو في علم الأنساب، يقول في المقدمة: «(...) ولما رأيت - أيدكم الله - كل أحد يفخر بنفسه وبقومه وأجداده وأسلافه، رأيت من وجه المذاكرة، مع قلة معرفتي بالأنساب، وخمود خاطري، وقلة بياني، أن أذكر طرفاً فيما يوجد لقومي من السوابق، التي لا ينكر عدد ماثرهم، مما أحفظ»⁽³⁾. وقد ابتدأ عادي بن يزيد بشرح القصيدة «الحلوانية» بالقول: «(...) وما تصديت لشرح هذه القصيدة، إلا أن أكون ممن تشبه بأهل العلم، وتحلى بحلية أهل العلم والفهم، لأنه قد جاء في الحديث عن ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»، ولم يدعني إلى

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 351 - 352.

(2) أورده سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 382.

(3) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 461.

جاء في الحديث
عن النبي ﷺ:
«من تشبه بقوم
فهو منهم»

تأليف هذا الكتاب بطر ولا أشتر، ولكني رجوت بلوغ الوطر، والفوز والظفر، فمن وجد في كتابي هذا شيئاً من الخطأ والخلط، والزيغ والزلل، فليقل عثرتي، ويستر هفوتي، ويقبل معذرتي، لقلّة معرفتي، وضعف بصيرتي، إلا أنه قد قيل: «من ستر عورة أخيه المؤمن، ستر الله عورته يوم القيامة» (...)⁽¹⁾.

وهذا الطبيب العُماني الشيخ راشد بن خلف يؤلف منظومة جامعة في الطب هي القصيدة اللامية التي مطلعها:

أقول مقالاً محكماً ومفضلاً لأهل النهى في الطب علماء مكملاً

وبعد أن يشرح خطة تأليفه، في الشرح الحافل الذي خصها به، ويذكر ما أفاده من غيره، سرعان ما يردف بالقول:

«فمن وقف على ما نظمته، فليسد العيب إذا رأى خلا أو زللاً، وله من الله أفضل جزاء. وما حذف بعض الأبواب إلا لقصر باعي، واشتغال طباعي، وامحال المراعي. إني قلت ذلك والزمان قد ألقى على أهله جرانه، وأشعل في قلوبهم نيرانه، والحرب بين أهل الرساتيق ساطعة، وأهل المظالم لسبل الله قاطعة، لكن يطفئ الله نيران الحروب، ويؤمن الخائفين من جميع الذؤوب، إنه على كل شيء قدير، وهو حسبي، عليه توكلت وإليه أنيب»⁽²⁾.

وقد سئل العلامة الفقيه سليمان بن سيف السليمان عن مسألة، فكان من جوابه: «فالذي أقول: إني ضعيف الفهم، قليل العلم، لست ممن يدخل هذا المدخل، وينزل نفسه هذه المنزلة، إلا أن المذاكرة جلاء القلوب من صدی الغفلات، وصل الأفهام بين الإخوان...». وقال في غيره: «هكذا عندي، ولا يؤخذ من هذا، فإني قليل العلم ضعيف الفهم، ولست فقيهاً». (ذكره صاحب النمير).

وكان العلامة القاضي محمد بن سالم الرقيشي كثيراً ما يهضم نفسه. وقد أجاب ذات مرة الإمام الخليلي - وكان سأله رأيه في قضية: «أقول: إني نظرت في كتابك لي، وقولك حقق المسألة، فاعلم أيها الإمام أني ضعيف على التحقيق والنظر (...). واعرّف أني لست من أهل الرأي، ولو مثلاً كنتُ أهله، فلا يحل لأحد من أهل الرأي أن ينصب رأيه ديناً ولا يضل أحد من إخوانه إذا خالفه الرأي، بل على كل مكلف أن يجتهد في ما بان له من الصواب...».

(1) أورده سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 463.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 243.

قال الطبيب العُماني
الشيخ راشد: من
وقف على ما نظمته،
فليسد العيب إذا رأى
خللاً أو زللاً، وله من
الله أفضل جزاء. وما
حذفت بعض الأبواب
إلا لقصر باعي،
واشغال طباعي،
وامحال المراعي

ومن حب التواضع إلى جنون التواضع. فقد روي عن العلامة سيف بن راشد بن نبهان المعولي أنه كان قد ألف كتاباً في تفسير سورة الفاتحة، ثم مزقه وقال: «أخشى أن يضحك عليه العلماء»، ومزقه على عامد الفلج، ورأى بعد ذلك رؤيا في المنام كأنه يرمي بالدر في الفلج، وتأسف بعد ذلك على تمزيقه الكتاب، إلا أنه لم يعد كتابته مرة أخرى. (ذكره صاحب النمير نقلاً).

وقد توقوا الشهرة ما أمكنهم ذلك، وتوخوا الغمرة ما أسعفهم ذلك. هذا الشيخ الفقيه راشد بن سعيد بن راشد الجهضمي العُماني (ت 1171هـ/1757م)، كان الرجل على جانب كبير من الزهد والورع وكثرة العبادة، وما كان يفتعل ذلك كي يشتهر، وإنما كان يفعله إيماناً واحتساباً، وكانت الغمرة أحب إلى نفسه من الشهرة. ومما يحكى عنه في باب كراهية الشهرة الجالبة للمنفعة الأجلة أنه أمر رجلاً أن يشتري له كبشاً من السوق ليضحى به يوم العيد، فاشتراه وجاء به إليه، وقال: «اشتريته رخيصاً؛ لأنني قلت للدلال: أريده للشيخ راشد، فتوقف الناس عن الزبون احتراماً لك». ولما أخبره بذلك، أمر بذبح الكبش، وأن يتصدق بلحمه⁽¹⁾.

حتى شعراؤهم، وكثير من الشعراء يعجب بشعر نفسه، ما نجد عندهم مثل هذا العُجب. هذا مثلاً الشاعر العُماني أبو علي أبزون بن مهبرد، قال عنه الصلاح الصفدي - في كتاب «الوافي بالوفيات» -: «قال محمد بن أحمد، المعروف بابن الحاجب، كنت قبل حصولي بعُمان، أسمع بشعر الكافي أبي علي، وتمر بي القصيدة بعد القصيدة، وكنت أفرط إعجابي بها بمن يرويها لي عن مؤلفها، فتكون النفس بحفظها أنشط، والفكرة على ضبطها أحرص، لسلامتها من تصحيف يقع فيها، فقصدته، فلما اجتمعت معه، لم أتمكن من مجالسته، فوجدته غير معجب بشعر نفسه، على عادة أبناء جنسه، وأنشد:

هل في مودة ناكث من راغب
أم هل يفيدك أن تعاتب مولعاً
جعل اعتراضك للسفاهة ديدناً
والذئب ديدنه اعتراض الراكب⁽²⁾
أم على فقدانها من نادب
يتتبع العشرات غير مراقب

وطلبوا لغيرهم الإنصاف، وطلبوا من أنفسهم الانتصاف. فقد ذكر أبو يعقوب يوسف ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر أن أبا عبد الله نزل ذات مرة إلى وغلانة، وفيها جماعة من العزاب في المسجد عازمين، فقصدوا أبا عبد الله تحت

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 183.

(2) أورده سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 517.

من النادر أن تجد
شاعراً لا يعجبه
شعر نفسه

النخيل التي على «عين تاعمارت»، فأتاه أبو عمران موسى بن جنون بشيء من البسر والفقوص في أوان إبان التمر، فانتهره وأبى أن يأخذ شيئاً منها، وقال: «أتجترئ عليّ بمثل هذا؟ إذهب بذلك إلى العزاب»، فقال موسى: «وما يبلغ هذا من كثرة العزاب؟» فقال أبو عبد الله: «جزئ الفقوص أجزاء وتجعلها مع البسر في حجرك وتعطيهم إلى حيث بلغت فيهم». ففعل ما أمره به. ويعلق الوسياني: وهذا من حسن سيرته، وكثرة سياسته، وخوفه من عقوق أصحابه⁽¹⁾.

وقد تواضعوا التواضع الكريم الأبي في مآكلهم ومشربهم ومنسكهم وممشاهم ومسكنهم. فقد روي أنه كان للإمام محمد بن عبد الله الخليلي منزل متواضع به سبلة وحجرتان مساحة الحجرة الواحدة بقدر ما يمد الإنسان جسده فقط. (ذكره صاحب النمير). كذا كان حال الفقهاء الذين كانوا لا يريدون أن يأكلوا دنياهم بدينهم، والذين لطالما رفضوا أن يصيروا الدين شبكة لاصطياد الدنيا.

(1) الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 823. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 385.





كتاب الإحسان والإفضال أو كتاب الجود والسخاء

«وليته [يعني ابن بطوطة] دخلها [=عُمان] أيام الأئمة العاديين حتى يرى غير ما رأى، وينظر السيرة النيرة والحق الواضح ومكارم الأخلاق، ومعالي الصفات، ومقامات الكمال، وعواطف الإحسان والإفضال».

نور الدين السالمي: تحفة الأعيان

«وقد زرت هذا الشيخ، أبا ميدول، أنا وزكريا بن أبي بكر، فقال لنا: كتب إليّ أبو عبد الله كتاباً فيه: «مد اليد بما أمكنك، مد اليد بما أمكنك»، وكررها ثلاثاً. فأمرت واحداً من العزّاب أن ينسخها في كتاب، فكتبها لي مرة واحدة، فقال لنا: انظروا إلى أهل هذا الزمان وأفعالهم!».

من سير الوسياني



أجد بداية شهادتي هذه في حكاية رواها أحدهم عن الصوفي المغربي أبي العباس السبتي، كان أوردها صاحب السير والتراجم الصوفي التادلي في الكتاب الذي أفرده لأخباره: «بعثني أبو الوليد ابن رشد من قرطبة وقال لي: إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه وأعلمني به... فجلست مع السبتي كثيراً إلى أن حصلت مذهبه، فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد: هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالوجود، وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة».

والحال أنني متحير في أمري: لست أدري ممّ أعجب: أمّن رجل (أبو العباس السبتي الصوفي المغربي الشهير) مذهبه يدور على الجود، حتى تكاد تكون عبارته: يحسن بك الجود ما دمت في هذا الوجود، فإن أنت لن تجد لم توجد، حد أن صار بالمكنة القول معه حكياً عن عبارة شهيرة تلخص مذهب ديكارت: «أنا أجود إذن أنا موجود»؟ أم أعجب من قدرة الفيلسوف ابن رشد على تلخيص مذهب الرجل؟ وأياً تصرفت الأمور، فإنني لا أدعي أن لي القدرة نفسها على تجميع آراء حكمائي هؤلاء - الذين نحتفي بهم اليوم - لا سيّما وأن كتاباتهم مختلفة المناهل والموارد، منبثة في ثنايا وتضاعيف سيرهم. هؤلاء هم أهل سخوة النفوس، والبرود عن الدنيا. وقد قال عنهم الوسياني: «والصدقة والمعروف والعطية والهدية والعارية من أخلاق المسلمين»⁽¹⁾.

هذا ابن اليسع (من أهل مصر) يذكر أنه: «كان شيخاً سخياً ذا يسر، فاضلاً شهيراً. وقد جعل كراء عشر فنادق لفقراء المسلمين»⁽²⁾.

وهذا الشيخ موسى بن جنون، وقد كان شيخاً سخياً صالحاً، كان نزل مع عبد الله في الربيع في ركام، وكان يوقد النار على رأس كدية عظيمة يقال لها: أم العز، ليراها الأضياف فيقصدوا الحي، ولئلا يضل أحد⁽³⁾.

وهذا ابن مهاصر ذهب به سخاؤه إلى حد أنه أعطى بغله لقوم غرباء اشتكى بعضهم قلة الظهر ومشقة المرض، فحمل عليه، فقال: أين أردته؟ قال: «يوم اللقاء». وحدث أن لقوا أخاه بإفريقية، فتمسك بالبغل - قالوا: أعطاه لنا أبو مهاصر - قال: كيف؟ - قالوا: قال: آخذه يوم اللقاء - قال: هذا من كلام أخي⁽⁴⁾.

هذا رجل مذهبه
أن الوجود ينفعل
بالجود
أنا أجود إذن
أنا موجود
فإن كفت عن
الجود صرت في
عداد من مات
ولم يعد

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 660.

(2) العباس بن أحمد بن سعيد الشماخي: كتاب السير، تحقيق: محمد حسن، سلسلة كلية العلوم الإنسانية، المجلد 15، تونس، ص 21.

(3) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 702.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 117.

ومنهم مصلوكن التائب، وكان فقيهاً من أهل إمساكون، تذكر السير أنه كان سخي الكف، قد قل من لم يأكل من طعامه من أهل جبل نفوسة وأشياخهم⁽¹⁾.

ومنهم أيضاً أبو يعقوب البغطوري، وقد كان رجلاً ورعاً سخي الكف. وورد في السير أنه بدّل باب داره حتى يتمكن من إدخال رماح الضيوف لكثرتها، كما ذكر عنه أنه أتاه ثمانون فارساً في الشدة والقحط، بعد أن أطمع جماعة من الأضياف باتوا عنده، وذلك ليلاً. وقد أعطى ويبة شعير لعلف كل فرس⁽²⁾.

وذكر يعقوب بن أبي القاسم أن الشيخ محمد بن تامر التناوتي كان يوصي من يمر عليه بخصال من الجود عجيبة، يقول: «إذا رأيتم الأضياف قاصدين نحوكم فلا يسبقكم كلاب الحي إليهم، وإذا أردتم أن تذبخوا للأضياف فاذبحوا الكبير، فإن الصغيرة إذا تركت سدت مكان الكبيرة، وإذا قصدتم أرضاً وطلبتم إلى المبيت دونها فبيتوا، فإنكم لا تدرون ماذا يحدث لكم»⁽³⁾.

ومنهم عالم جربة أبو زكريا فيصل بن أبي مسور يسجا بن يوجين البهراسني (ت بين 420 - 440هـ/1029 - 1048م) الذي كان يقول من سخاوته الشاملة: «خبزي مرفوع إلى الجائزة [المارة أو السابلة] مرشوق [منظور إليه]؛ يعني أنه المقصود دون غيره بنوائب الضعفاء والأضياف، خبزه مهياً إن عارضه أحد وخفف عنه فذاك، وإلا فلا ضيعة تلحق إلا الأضياف»⁽⁴⁾.

ومنهم العالم السخي أبو محمد عبدة الجلاني، ومن أعجب ما حكى عنه أنه تعلم العلم في بيته لكثرة من كان يغشاه من المشائخ وقيم عنده، وكان لربما مكث عنده بعضهم أربعة أشهر أو ستة⁽⁵⁾.

وأعطى عمران بن زيري لأبي عبد الله محمد بن بكر عظم لحم شاة عراق لحم، فإذا سائل وقف عليهما، فقال: «أعطوني شيئاً». قال: فابتدر عمران العظم من يد أبي عبد الله وفيه، فأعطاه السائل، وقعدا ومضيا في حديثهما. وكان أبو عبد الله إذا حدث بهذا الحديث يقول: «أين من يفعل هذا سوى عمران؟» شكراً لما صنع⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 167.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 288.

(3) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 795.

(4) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 300.

(5) الشماخي، كتاب السير، ص 295.

(6) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 807 - 808.

قال عالم جربة

البهراسني: خبزي

مرفوع إلى الجائزة

[المارة أو السابلة]

مرشوق [منظور

إليه]؛ يعني أنه

المقصود دون غيره

بنوائب الضعفاء

والأضياف، خبزه

مهياً إن عارضه أحد

وخفف عنه فذاك،

وإلا فلا ضيعة تلحق

إلا الأضياف

ومنهم العلامة أبو جعفر أحمد بن خيران الوسياني، وكان رجلاً ذا فضل، وكان رجلاً سخياً، وكان أبو عبد الله بن بكر يقول فيه: قطع أبو جعفر عذرکم إن زعمتم أنکم مقلون فهو مثلكم، وإن زعمتم أنکم في بلاد قائمة الأسواق كثيرة المسالك فهو كذلك.

وكانت عادته تأخير العشاء إلى أن يصلي العتمة، فينادي في المسجد لا بيت حيف دون عشاء، ثم يفتش أركان المسجد وزواياه، فإن وجد طارقاً وابن سبيل حمله، وإلا انصرف⁽¹⁾.

وكان الشيخ أبو نوح سعيد بن زنگيل - مع ما أعطاه الله من المنزلة - كثير التواضع والانقياد. ولقد قال فيه أبو عبد الله محمد بن بكر: «ما أدركت فيما أدركت أفضل منه»، وذكر عنه أنه قال في حديث: «لا تسوى نفسي عندي هذا كله - وعقد على يديه الصفيقلة - ولا أحب مع ذلك من يواجهنني بالمحقرة». وحكي عنه أنه إذا أضاف الأضياف أحسن القيام بهم وبر لهم، ويقف عليهم بنفسه، ولو كان أولاده؛ فإذا قالوا له: «إجلس»، قال لهم: «إن الرجل يقف للبهائم، فكيف لا يقف للرجال». فإذا أضافه غيره قال لمن وقف عليه: «إجلس، فإن الوقوف على الضيف مشتتة لذهنه ولزوم له»⁽²⁾.

ومن الكرام سيف بن محمد بن عدي الفارسي. كان لا يأكل منفرداً إلا مع الضيف. وإذا لم يجد أحداً في يوم من الأيام يذهب إلى الشارع ليأتي بأحد يأكل معه، ولو من غير أهل البلد. ونزل معه رجل أعجمي، فبقي مدة من الزمن، وهو ضيف عنده، ثم سار إلى بلاده. ولما جهز السلطان جيشاً إلى بندر عباس لاسترجاعها من يد العجم، وقع الانهزام في جيش السلطان، وفر كل واحد بنفسه، خرج سيف بن محمد إلى مكان هنالك، فجاره رجل أعجمي وقبضه من يده وصافحه وقال له: تفضل هذا البيت بيتك، ولم يعرف سيف بن محمد الرجل وخاف منه، فقال له: لا تخف أنت أحسنت إليّ مدة من الزمن، وعند دخولك البيت سأخبرك عن المعروف الذي قلدني إياه، فدخل معه وتعارفاً، وبقي في أمان واطمئنان وإحسان إلى أن رجع إلى عُمان. (ذكره صاحب النمير).

إن سيف بن محمد
الفارسي كان لا يأكل
منفرداً إلا مع
الضيف. وإذا لم
يجد أحداً في يوم
من الأيام يذهب
إلى الشارع ليأتي
بأحد يأكل معه، ولو
من غير أهل البلد

(1) الشماخي، ص 376 - 377. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 783. والدرجيني،

طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 404.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 789.

وكان الإمام نور الدين السالمي جواداً كريماً سخياً النفس محبوباً عند الناس، قلَّ ما أكل طعاماً وحده لآزدحام الأضياف بناديه، وكثرة ملازميه المغتربين من فيض أياديه، وهو غاية في الكرم يقدم للضيف ما حضر بلا تكلف، ولا بطر، كثير التفقد والفحص عن إخوانه وتلامذته، يسأل عما ينفذ من بيوتهم، فإذا أخبر بشيء ليس عندهم أمر أن يحمل إليهم ذلك من بيته.

ويحكى من غريب جوده ما حدّث به أبو غابش بن خير الشيخ سعود بن حميد، قال: «كنت ذات يوم مصاحباً للشيخ السالمي وقصده ورود النهر، فدخل المغتسل، وجاء سائل وقال لي: أريد أن تقول للشيخ يعطيني قرشاً، فإني محتاج. قال: فلم أشعر إلا بخروج الشيخ يسرع في مشيه حتى دخل البيت، وكان قريباً منه، فأخرج قرشاً، وقال لي: إدفعه للسائل».

وأغرب من ذلك، قيام التلاميذ الشهور والسنين في منزله، وأكلهم وكسوتهم وحوادثهم كلها من عنده. (نقله صاحب النمير عن مخطوط: فرائد الزمان في نهضة أهل عُمان).

وقد كتب الطبيب والفيلسوف العُماني ابن الذهبي في باب البخل من كتاب الماء ما يلي:

«وكثرة البخل في الأطباء والحكماء شيء عجيب. ومن هذا ما وصى به يعقوب بن إسحاق الكندي ولده، فقال: «يا بني، الأب رب، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب. وقول: لا، يصرف البلا. وقول: نعم، يزيل النعم، وسماع الغناء برسام حاد؛ لأن الإنسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيموت. والدينار محموم، فإن صرفته مات، والدرهم محبوس، فإن أخرجته فر. والناس سخرة، فخذ شيتهم واحفظ شيتك». وروي عن بختشيع وإسحاق اليهودي ويوحنا بن ماسويه من أمثال ذلك الكثير. وما أدري كيف يتفق هذا في الطب والحكمة، نعوذ بالله من الشح والبخل وما يحوج إليهما»⁽¹⁾.

ما أدري كيف يتفق
البخل في الطب
والحكمة، نعوذ بالله
من الشح والبخل
وما يحوج إليهما

(1) أبو محمد عبد الله الأزدي الصحاري: كتاب الماء، تحقيق هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م، المجلد الأول، ص 110.



كتاب الألم

«من الجيد أن يتعلم المرء أن يكون حكيماً في
مدرسة الألم».

الكاتب المسرحي اليوناني أسخيلوس

«كن يا ألمي حكيماً، وهدئ من روعك».

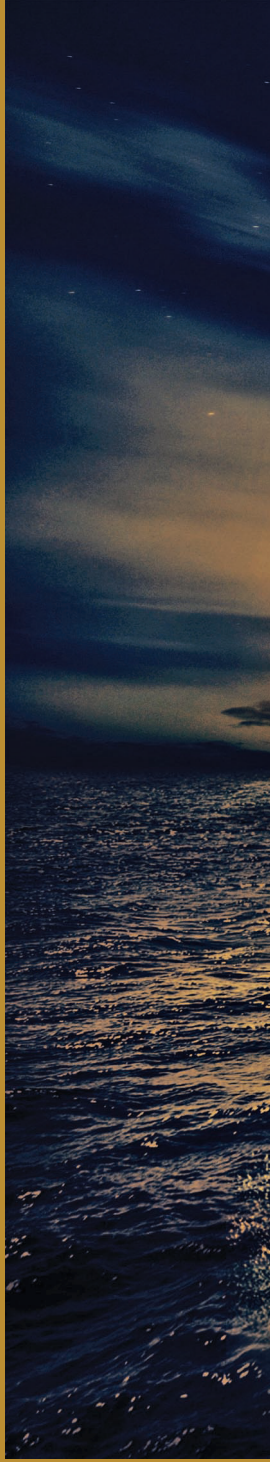
الشاعر الفرنسي بودلير

«لا شيء عظيم ينجز من غير ألم».

الكاتب الفرنسي ألفريد دو ميسي

«كل ألم لا يساعد أحداً ألم لا معنى له».

المفكر والأديب أندريه مالرو



تجربة الألم تجربة تراجمية عميقة. وللألم في سير الحكماء حياة. كان الفيلسوف الألماني نيتشه عادة ما يقول:

الحياة فيها ألم، ومع ذلك تستحق أن تعاش. وحكماء الإياضية - من منطلق إيماني - كانوا يعتبرون أن ألم الحياة يستحمل من أجل ما كانوا يعدونه إعزاز دولة الحق.

ارتباط الآلام بالمحن في تاريخ الأقليات المسلمة

لقد ارتبط الألم عندهم، أول ما ارتبط، في العديد من الأحيان - وفي تجارب هؤلاء القوم - وهم الأقلية - بالمحن. إذ نطالما امتحنوا المحن.

فقد أورد أصحاب السير والتراجم في ترجمة ضمام بن السائب رواية عن أبي سفيان ما يلي: «بلغنا عن ضمام، حين سجنه الحجاج، هو وأبو عبيدة، قال: «أدخلنا الحبس، فلم يكن يوصل إلينا، ولا يدخل علينا حديدة، ولا جلم [آلة كالمقص]، قال: وإنما كنا نقص شواربنا بأسناننا، وإن كان الرجل منا لينفض لحيته، فيتساقط منه القمل، قال: وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش، ويعمد إلى مراكن عظام، فيسكب فيها الماء، ثم يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن، ثم يضرب حتى تخرج رغوته، ثم يقال: يا أهل السجن خذوا ماءكم، فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلاً، وأما من أخذ من أسفله فهو العذاب، قال: فكان ضمام ربما ضاق، فيقول له أبو عبيدة: ويحك على من تضيق، وعلى من تدل؟ قال: فلم يخرجوا من سجنه، حتى مات الفاسق»⁽¹⁾.

وقيل: أنه عمد إلى ثلاثة من رجال الخوارج، فبنى عليهم بيتاً من قصب، وطلّى داخله وخارجه بالعدرة، ثم أدخلهم فيه، فقاموا ثلاثة أيام فماتوا، ثم وقع الموت في أهل السجن، فبلغ ذلك الحجاج، فأرسل إلى طبيب له مجوسي، فقال له: «ويحك إن أهل السجن وقع فيهم الموت وإني لأحب تعذيبهم». قال: طعامهم الزيت والكراث. قال أبو سفيان: «قال ضمام: «لما جاءنا بالزيت والكراث قوينا عليه وسمننا»، قال: فيقال للمجوسي: «ويحك ماذا أردت بهذا، لو تركتهم فماتوا كانوا أرواح لهم، قال: «وأى راحة لهم في الموت؟» ولعل هذا أن يموتوا فيخرجوا، ومن مات فلا مطمع فيه»⁽²⁾.

(1) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، الجزء الثاني، ص 247، سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 214 - 215.

(2) الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، الجزء الثاني، ص 247.

قال نيتشه: الحياة فيها ألم، ومع ذلك تستحق أن تعاش

الألم وإرادة المعرفة

وفي سيرة عمرو بن فتح النفوسي، ذكر أن إبراهيم بن أحمد الأغلبي أخذه في إحدى المعارك أسيراً، فسأله أن يطلب العفو، فقال: كلمة لا تسمعها مني أبداً، ولكن أسألك أن لا تعريني من سروالي هذا، فقطعوه بمقراض الحديد أنملة أنملة حتى بلغوا الإكحل [عرق في اليد يفصد]، فاستشهد ولم يتأوه. وكان قد أعياهم من شدة بأسه وكيادته بالعدو، ورصدوا له الحبال والشباك، فوحد فيها الفرس وكبا ووقع، فأخذوه...⁽¹⁾.

وعلى الرغم من الألم ومن المرض ومن العجز، ما منعهم هذا من مزاوله العلم.

هذا الشيخ القاضي صالح بن عمر بن ورد البهلوي، ابتلي بعلة الجذام، ولعل ذلك آخر زمانه، وبعد ممارسته للقضاء، وكان الناس أنها كثيراً ما يتحامون القرب من المجذوم، أو حملة بعد موته إلى المقبرة لمواراته، فاعتزل الناس من أجل هذه العلة، ولزم منزله في بهلى، فكان يقصده إخوانه من أجل العلم للمذاكرة⁽²⁾.

ومنهم العالم الزاهد أبو محمد عبد الله بن مطكود، كان من صفاته عدم قدرته على مباشرة أشغال الدنيا، يتأذى من ذلك كثيراً. ومما يحكى عنه أنه خرج مرة إلى حصاد زرعه، فملاً يده فأوجعته، واشتد عليه الحر، فوضع من يده الزرع، وانصرف إلى شيخه في بلاد إبنانين، فما كان من أهل منزله إلا أن حصدوا بعد ذلك زرعه. وكان لو جمع له الحطب والنار واللحم ما قدر أن يشوي وأن يأكل⁽³⁾.

وفي تدبير ألم الحزن على الفقد، واجهوا فقد القريب برباطة جأش قلما وجد لها نظير.

هذه امرأة أبي القاسم كانت في مجلس معها نسوة، ونعي إليها ابنها مات في غانة، قال: فقامت واغتسلت وصلت ركعتين، ثم قالت للنسوة: انظرن إلى وجهي هل امتنع من صدمة الرزية عما عهدتن؟ فقلن لها: لا، فحمدت الله على

(1) أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 236.

(2) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثاني، ص 27.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 308.

في تدبير ألم الحزن
على الفقد، واجهوا
فقد القريب برباطة
جأش قلما وجد
لها نظير

ذلك⁽¹⁾. وما كانت هذه المرأة إلا عاملة بما قاله مؤدب لصبي سأله يوماً من الأيام: «ما الصبر الجميل يا سيدي؟» قال له المؤدب: «ألا يُبان وجه المصاب من القوم»⁽²⁾.

ومات لأبي مسور يسجا (من علماء الطبقة السابعة: 300 - 350هـ) ابن، فجاءه الشيوخ يعزونه، فجلسوا يتذاكرون ويوردون ما فيه تسلية، فقال لهم الشيخ: أخبروني ما الصبر الجميل؟ وكيف صفته؟ فقالوا له: الجواب من عندك، فقال: هو أن لا تظهر المصيبة في وجه صاحب المصيبة، ولا يبين من بين جلسائه، ثم قال: هذا صعب، فهل أيسر منه؟ فقالوا: الجواب من عندك، فقال لهم: ما لم يتغير وجهه ويسدم ويوجم، ثم قال: وهذا صعب، فهل أيسر منه؟ فقالوا: وما هو؟ قال: ما لم يصح ويدع بالويل والثبور؛ لأن البكاء قد يكون بالرفقة والرحمة في النفس⁽³⁾.

وكثيراً ما عمدوا إلى السلوان عن الآلام. يحكي الدرجيني فيقول:

«كان والدي رحمه الله متألماً ذات يوم لعله كانت تعتاده، فحاولت ما أسلي به نفسه، وأريح به ألمه، فتناولت تعليقة فيها شعر الشيخ أبي يعقوب بن يوسف بن إبراهيم السدراتي، فصادفت القصيدة البائية، فجعلت أسرد أبياتها بحيث يسمع، فأصغى إليّ سمعه وسلا ما كان به، فقال: «اعلم أن هذه القصيدة قالها أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل»، ثم قال: «وإن فيها دلالة على صحة خبر كنت قد سمعته في صغري من أبي رحمه الله». فقلت: «وما هو؟» قال: «كان أبي في زمان شبيبته مهاجراً بوارجلان يقرأ على شيخه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب، فانفصل فجاء إلى قسطليلية، فأقام بموضع بكنومة ما شاء الله، فبلغه موت عم له كان مهاجراً بوارجلان قاطناً بها بتماواط وليس له وارث سواه»، قال أبي: «فصافرت إلى وارجلان سفرة ثانية طالب ورث لا طالب علم، فلما وصلتها سألت عن شيخنا أبي سليمان لأزوره، فأخبرت بأن الله قد ابتلاه في جسده ببعض ما ابتلى أوليائه، فعم جسده الجذام، ولازمه أشد لزام، ولازم المضجع لا حركة له، فجئت

قال مؤدب لصبي
سأله يوماً من الأيام:
«ما الصبر الجميل
يا سيدي؟» قال له
المؤدب: «ألا يُبان
وجه المصاب
من القوم»

(1) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 340 - 341.

(2) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 359.

(3) الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 338 - 339.

عجلان ولهان، فلما دخلت عليه نظر إليّ وعرفني، فتقدمت إليه لأسلم عليه، فخاطبني خطاب محذر أن أعافه وأتقذره، فقال: «إليك إليك يا سليمان يا ولدي، فليس في حالي ما تدنو منه»، فقلت: «حاشا لله أن أتقذرك، يا شيخنا»، وسقطت منكباً عليه أعانقه وأقبله وأبكي، حتى شفيت بعض هيامي». قال سعيد: «ما علمت أبي حكاها قط إلا بكى وأبكى، ولا علمت أنني حكيتها قط إلا بكيت وأبكيت». قال سليمان: «وأقمت مدة إقامتي بها لا أفتر عن الدخول عليه حتى اقتضيت ما كان لي من حق...»⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 460 - 461.



كتاب المرأة

«وذكر محمد بن مانوج أن والدته زارها المشايخ ذات مرة في آخر عمرها، فقالوا لها: «حدثينا بشيء»، فقالت لهم: «ماذا أحدثكم به؟ كل ما دفنه الأخيار من الأوائل أظهرتموه أنتم أهل هذا الزمان؟».

من سير الوسياني

زار نانا تابر كانت جمع من العلماء، فقالوا لها: «أوصنا يا عجوز». فقالت لهم: «إياكم وكثرة الكلام لكي لا تحنثوا، وإياكم والتهمة لكي لا تظلموا»، ثم قالت لهم: «يقول بعض العلماء الحكماء: نَقَّ العمل فإن الناقد بصير، وجدَّ السفينة فإن البحر عميق، وكثُر الزاد فإن السفر بعيد». ثم حذرتهم من الزيارة لطلب الحوائج، والمصافحة بالمقارعة، والأكل أكل النهم، والمشي مشي المرضى، والنوم نوم الموتى.



تاريخ المرأة هو في جزء منه تاريخ ظلم المرأة

ألا كم همّشت بعض كتب التراجم النساء! من غريب الأمور، مثلاً، أن يورد الشيخ البطاشي تراجم المئات من حكماء وعلماء وفقهاء وأدباء عُمان، ولا يذكر في إتحافه إلا ترجمتين اثنتين يتيّمتين للمرأة العُمانية:

الأولى، تتعلق بعائشة بنت راشد بن خصيب الريامية التي يصفها بأنها كانت «الشيخة الفقيهة العالمة الزاهدة» التي كانت أيام الإمام بلعرب بن سلطان (نصب عام 1090هـ/1679م) وأخيه وحفيده. وذكر أنها كانت لها مدرسة، وأنها كانت فقيهة عالمة متصدرة للفتيا ولربما كانت لها أيضاً مشاركة في السياسة⁽¹⁾. ثم يورد لها بعض الفتاوى، ويضيف بالقول: «والمتبادر أن لها خزانة كتب أوقفقتها، وأوصت بشيء من المال لإصلاحها».

والثانية، فرحا بنت علي بن محمد، وهي من ذوات العلم والمعرفة في القرن الحادي عشر، وقد استنسخت بعض الكتب فنسخت لها⁽²⁾.

هذا فضلاً عن مجرد إلماعة وإيماضة تتعلق بالفقيهة عائشة بنت مسعود بن سليمان بن سرحة وبكونها نسخت بيدها كتاب «المهذب» في الميراث⁽³⁾.

والحال أن البطاشي ما كان إلا مكرراً للصورة التي ارتسمت عادة عن المرأة العربية - والبربرية - باستمرار. وهي صورة المرأة التي «يبتلى» بها الحكماء. حتى ألف بعض أهل العربية قديماً كتاباً سماه «ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار»⁽⁴⁾.

هذا نموذج: مما يذكر من سعة صدر الفقيه أبي صالح وقلة ضجره، وكثرة صبره، أنه جلس ذات مرة مع امرأته وهي تعجن عجينة، فخاطبها بكلام لم يقع منها موقع الموافقة، فلطمته حتى ارتسمت آثار أصابعها في خد أبي صالح، فتكدر خاطره، فلم يمكنه من الشكوى إلى أحد، ولم يكن له بد من الشكوى إلى شيخه أبي يوسف يعقوب الطرفي، فجاءه شاكياً، فلما بثه حاله، قال الشيخ: «أترى هذه؟» وأشار إلى زوجته، فقال: «ما لها؟» قال: «ضربتني البارحة بمقلتي فصيرته طوقاً في عنقي»، فقال أبو صالح: «أنت، أنت»، يريد: أنت أصبر مني، «ثم والله لا أشكوها بعد اليوم»⁽⁵⁾.

- (1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الثالث، ص 343.
- (2) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 419.
- (3) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 243.
- (4) إسماعيل بن نصر بن عبد المحسن السلاحي المعروف بابن القطعة: ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار، تحقيق رياض مصطفى العبد الله، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1413هـ.
- (5) طبقات الدرجيني، طبقات المشائخ، الجزء الثاني، ص 344. وانظر: الشماخي، ص 331. وانظر: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 433.

همّشت بعض كتب
التراجم النساء،
فالشيخ البطاشي
مثلاً لم يورد إلا
ترجمتين يتيّمتين

أرعدت، ثم سرعان ما أمطرت

هذه صورة شائعة عن المرأة والمفكر، نجد أحد أقدم آثارها في زوجة الحكيم اليوناني الشهير سقراط وما يحكى عنها من أنها كانت إذا ضاقت بانشغال سقراط بتلامذته عنها تنتهي بصب إناء من ماء بارد على رأس الحكيم، فما يكون منه إلا أن يعلق تعليق الحكماء: «ألم أقل لكم: إن زوجتي ترعد أولاً، ثم تمطر ثانياً»!! وعندما أخبره تلميذه ألقبياديس بأن إهانات زوجته أكسانتيبي وتعنيفها له أمر لا يمكن احتماله، أجابه بقوله: «ولكنني من جانبي قد تعودت على إهاناتها، كما لو أنني كنت أصغي باستمرار لصرير العجلات في دورانها، مثلما تتعود أنت على صياح الأوز وصراخه»، وهنا احتج ألقبياديس بقوله: «ولكن الأوزات يمنحنني بيضاً وينجبن لي من الأوز صغاراً»، فما كان من سقراط إلا أن أجابه: «وكذلك هي أكسانتيبي تنجب لي أطفالاً». وعندما جذبت زوجته ذات مرة من رداءه ومزقته عندما كان في ساحة السوق، نصحه معارفه بأن يحمي نفسه منها، وأن يرد لها الصاع صاعين بيديه، فما كان منه إلا أن رد بالقول: «أجل وحق زيوس، لو أنني فعلت ذلك، فسوف يقول كل شخص منكم لي ولها ونحن نتبادل اللكمات: «حسناً فعلت يا سقراط! حسناً أبلت يا أكسانتيبي!» وكان من عادته أن يعلن أن حياته مع زوجته السيئة سليطة اللسان أشبه ما تكون بولع الفرسان على امتطاء أفراس جامحة صعبة القيادة، ثم يردف قائلاً: «وكما يكبح هؤلاء الفرسان جماح مثل هذه الأفراس، فإنهم يسيطرون بسهولة على ما عداها من جياذ، وهكذا حالي في تعاملي مع أكسانتيبي، فإن بوسعي بعدها أن أتصرف مع سائر البشر أجمعين على نحو أفضل»⁽¹⁾.

الأدبيات المعادية للمرأة

كما نجد أثراً لها في ما رواه الفقيه الصوفي المغربي ابن عجيبة في فهرسته، فقال:

«(...) وقد مر علينا شيء من جفائهن وإذابتهن، فصبرنا والحمد لله. فمن ذلك أني كنت ذات يوم في خلوتي في موضع عال، فغضبت بعض نسائي وحركتها الغيرة، فصعدت إليّ وعنفنتني وأنزلتني دربة [دحرجة وسوقاً عنيفاً]، ثم أخرجتني عن باب الدار وشدت الباب وزرقتها [وضعت عليها مزلاجاً] خلفي، فبت خارج الدار. ومن ذلك أني رقدت يوماً على لحافها، فجذبتني من تحتي ورمت بي إلى الأرض.

(1) ديوجينيس اللائرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، ترجمة إمام عبد الفتاح، المجلد الأول، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006، ص 157 - 158.

إن زوجة الحكيم
اليوناني الشهير
سقراط وما يحكى
عنها من أنها كانت
إذا ضاقت بانشغال
سقراط بتلامذته عنها
تنتهي بصب إناء من
ماء بارد على رأس
الحكيم، فما يكون
منه إلا أن يعلق
تعليق الحكماء:
ألم أقل لكم: إن
زوجتي ترعد أولاً،
ثم تمطر ثانياً

ومن ذلك أني أتيت لها ذات يوم بجبتين طريتين في وعاء، فوجدتها غضبي، فجعنتهما برجلها ثم رمت بهما وجهي، وكنت جالساً فضربت رأسي في الحائط ضرباً شديداً»⁽¹⁾.

وقد أورد الوسياني أسماء من تزوج من الشيخ قرائتهم في الخير: أبان تزوج يالوت، وأبو مر تزوج زرزورت، وأبو مهاصر تلولي، وأبو ميمون أم يحيى. كما أورد ستة من الشيوخ عد زوجاتهم رديئات: ماطوس بن ماطوس، وأبا إسحاق من إشارات تزوج عائشة، وأبا زيد زوجته رديئة، وأبا نصر، وأبا القاسم البغطوري الذي تزوج بأثمان. ثم أورد أسماء العجائز الصالحات وهن: زورغ من أدكان، في زمن أبان، وأم يحيى من تيصلت، وأسيت من ويغو، وأصيل من تيمصمن، وسرغينت زوج حمال من وريوري، وأم حسنون من لالوت، وصيدينت من تملوشايت، وتوجينت أم رمان من تارديت، وأبوب من مصليوش⁽²⁾.

ولهذه الحثية، وجدت الكثير من الفقهاء ينهى عن مجالسة النساء والأخذ برأيهن:

هذا الفقيه الحكيم أبو زكريا فيصل بن أبي مسوار يرى أن المرأة كل إرب منها يدعو كل إرب من الرجل، ولذلك فإنه: «من أراد السلامة لدينه ونفسه، فليهرب منهن، وليجتنب أمورهن»⁽³⁾، وقد نقل عن الشيخ أبي مسور أنه قال: «إذا رأيت الرجل يكثر مخالطة النساء ومحادثتهن، فاغسل منه يدك وإياس منه، ولا يكون ذلك إلا من خسة العقل»⁽⁴⁾.

تلك صورة شائعة عن المرأة المعروفة تحت اسم «امرأة سوء»:

وقد ذكر عن العديد من الفقهاء والحكماء أنهم ابتلوا بنساء سوء. منهم أبو القاسم سدرات بن الحسن البغطوي - من فقهاء جبل نفوسة - ذكر أنه: «تزوج آخر عمره امرأة سوء كانت تؤذيه وأسرفت عليه، فبلغه الضرر مع الكبر. فدخل عليه المشايخ زائرين، وعليهم حسن اللباس، ومعه ابنة أخيه من الرضاعة جانا التنزغتي، فقالت: شيخكم يصوم على الحسو، وأنتم على ما

(1) ابن عجيبة: الفهرسة، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، دار الفد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1990، ص 83.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 547.

(3) أبو الربيع الميزاتي: السير، ص 60.

(4) المصدر نفسه، ص 61.

الفقيه الحكيم
أبو زكريا فيصل بن
أبي مسوار يرى أن
المرأة كل إرب منها
يدعو كل إرب من
الرجل، ولذلك فإنه:
«من أراد السلامة
لدينه ونفسه،
فليهرب منهن،
وليجتنب أمورهن»

أرى من حسن الهيئة، فجمعوا له دراهم أعطوها لها، وأنفقتها على الشيخ وهو لا يعرف، فحسننت حالة الشيخ. وكانت إذا أرادت أن تطعمه أورت أنها تظلي قملة، فيجعل رأسه بين ركبتيها. وما لبثت أن فطنت زوجته بعد زمان، فلما ظنت أنه يأكل أخذته من رجله، فرمت به تحت الدكان، فقال: رددت العيال إلى بطنك، فكانت حاله معها إلى أن مات، فحضرت نساء جنازته، فسألته عن مسألة، فقالت للأمة: ما كان يفعل فيها مولاك؟ قالت: لا تعرفها أنت، فكيف أنا أعرف؟⁽¹⁾.

ومنهن زوجة الفقيه أبي زيد البصغورتي، يحكى عنها أنها كانت: «زوجة سوء مسرفة، إذا قال لها: احمر الفجر، قالت: حمر الله عينيك بالسم، دعني أرقد!»⁽²⁾. وكذلك الشيخ أبو إسحاق الأشارني ذكر أنه كان ممن ابتلي بزوجة سوء، وكانت تضربه، ويحتمل ذلك لله⁽³⁾. ومنهن زوجة ابن ماطوس، فقد ابتلي من صبره بامرأة سوء، وكان يوماً يحدث امرأة، فألقت على عمامته رماداً، وما زاد إلا الحمد والشكر⁽⁴⁾.

ومنهن من عدت خير نساء أجلو عائشة بنت معاذ، وكانت تذكر العلم، وتقول: رأيت كثيراً من أهل العلم والخير، وجالستهم، فلولا أحمد بن أبي عبد الله لمت بالجهالة⁽⁵⁾.

نماذج من أشهر النساء

ومنهن الشيخة العالمية عائشة بنت راشد بن خصيب الريامية البهلوية، وكانت عالمة فقيهة ومفتية ضليعة، وقد تردد اسمها في كتب الفقه، وهي تجيب عن فتاوى متعددة متنوعة. وقد نسخت لها كتب عديدة، وتفرقت كتبها بين مكتبات عديدة (ذكرها صاحب النمير). وكان مرجع مدينة بهلا، التي غصت بالعلماء، في ذلك الزمان هذه المرأة، حتى قال فيها الشاعر الأديب سعيد بن محمد بن راشد الغشيري الخليلي:

هي امرأة عميما ولكن بفضلها توازن ألفاً من رجال ضراغم

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 162 - 163.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 169.

(3) المصدر نفسه، ص 181.

(4) المصدر نفسه، ص 204.

(5) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 592.

زوجة الفقيه أبي
زيد البصغورتي،
يحكى عنها أنها
كانت: زوجة سوء
مسرفة، إذا قال لها:
احمر الفجر، قالت:
حمر الله عينيك
بالسم، دعني أرقد

هذا فضلاً عن الشيخة عليا بنت عامر بن محمد بن سالم الحارثية وقد نسخ لها المصحف الشريف، وحليمة بنت ربيعة بن علي الإسماعيلية الإبروية وقد نسخ لها جزء من كتاب: «بيان الشرع»، ومرهونة بنت زاهر بن علي بن سليمان السليمانية الأمطية الإزكوية نسخ لها كتاب الدلائل، ومنهن الناسخة شيخة بنت حمدان بن سليمان بن حمد اليمانية، وقد اعتنت بنسخ الكتب، ونسخت المصحف الشريف بيده، كما نسخت المعلقات السبع بخط يدها. (نقلاً عن النمير).

ومنهن الزاهدة حسينة بنت الشيخ سليمان بن مؤمن الحارثية، وقد عرفت بالزهد والورع، وقامت بدور التعليم وإرشاد النساء في أمور الدين، وكانت تنقطع وتبتل في مسجد لها على شريعة فلج العسي بسند الشأن يعرف بمسجد حسينة. (أورده صاحب النمير نقلاً عن كتاب: جوهرة الزمان في ذكر سمد الشأن، ص 50).

وتذكر المصادر أن السيدة ثريا بنت محمد البوسعيدية عينت الشيخ سليمان بن زهران الريامي وكيلاً لها بمسجد الوكيل يوزع النفقة على الدارسين فيه من طلاب العلم. وقد تخرج من هذا المسجد جملة من العلماء والمشايخ الذين انتفعوا بهذه النفقة، ونفعوا من جاء بعدهم.

وما كانت منهم المرأة الفقيهة فحسب، ولا الزاهدة فقط، بل كانت منهم المرأة الطيبية، وذلك على نحو ما نجده في أخبار الطيبية خديجة بنت كهلان بن محمد الصخبورية السعالية الطيبية الحاذقة.

المرأة المرغوبة والمرأة المرهوبة

ولعل المواجهة بين «المرأة المرغوبة» و«المرأة المرهوبة» حاضرة بأبلغ حضور في حالة الفقيه الورع أبي محمد التغرميني، من أهل المغرب، حيث تذكر كتب السير أنه كانت له زوجتان، إحداهما: تؤذيه، والأخرى: صالحة. ومما يروى عنه أن الطالحة عملت له مرة طعاماً، فاشتغل بالصلاة، فأكلت من الطعام عناق [لعلها الأنثى من أولاد الماعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حَوْل، أو لعلها حيوان من رتبة اللواحم ومن فصيلة السنانير، أكبر من القط قليلاً لونه أحمر، وفي أعلى كل من أذنيه شعرات سود، ويعرف بالتُّفَّة]، فماتت. فعمدت الزوجة الصالحة - وكانت تسمى أم زعرور - إلى الطعام، فدفتته،

تذكر المصادر أن
السيدة ثريا بنت
محمد البوسعيدية
عينت الشيخ
سليمان بن زهران
الريامي وكيلاً لها
بمسجد الوكيل يوزع
النفقة على الدارسين
فيه من طلاب العلم.
وقد تخرج من هذا
المسجد جملة من
العلماء والمشايخ
الذين انتفعوا
بهذه النفقة

ونقت الإناء، وصنعت طعاماً آخر. فلما فرغ الشيخ من ورده، أقبل على الأكل، فاستحسن الطعام، وقال لأم زعرور: «عملت طعاماً جيداً»، فقالت أم زعرور: «نعم»، لعلها تعني أن الطعام جيد. وكانت تكثر من شتم أم زعرور، وتسكت عنها، وتقول: «إياك أشتم!»، وتجيئها: «فلكِ سكتُ!»⁽¹⁾.

على أن هذا ما منع أبداً من أن تفرض المرأة نفسها بأرائها وعلمها. فهذه أم زعرور السابقة الذكر كانت عالمة ورعة، وكانت لها نقاشات نبهية في العلم والحكمة والزهادة مع زوجها أبي محمد التغرمني⁽²⁾. وهذا أبو غلبون النفوسي كان يقرأ في منزله، وتقرأ معه ابنته من بيتها، من الجانب الآخر من الوادي⁽³⁾.

وكم كانت حريصة على التعلم، حتى أن نساء من أهل تدنيت ذكر عنهن أنهن كن تحضرن مجلس العلامة أبي الشعثاء ومعهن أولادهن⁽⁴⁾.

ففي آخر عهد ولاية عبد الحميد الجناوي ذكر أنه لما حضرته الوفاة، أرسلوا إلى الإمام أن يولي عليهم أحداً، فأجابهم أن يختاروا أفضلهم وأولاهم بأمور المسلمين ويسموه، وكتبوا إليه أنه ليس مثل أبي عبيدة لهذا الأمر (...). فأرسل الإمام إليهم أن يولّوه بأمره، فاجتمعوا إلى أبي عبيدة، وأخبروه بما كتب به الإمام، وما أمرهم به من توليته إياهم على أنفسهم، على أن يقضي بينهم بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين.

فأجابهم بأن قال: «أنا ضعيف، ولا أطيق القيام بأمور المسلمين». فأرسلت نفوسة إلى الإمام بامتناعه وقوله: أنا ضعيف، أنا ضعيف. فأجابهم، وحلف بالله، بلغة العرب، وبلغة العجم، وبلغة البربر ألا يقلد المسلمين وأمورهم إلا رجلاً يقول: أنا ضعيف، أنا ضعيف. فكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين (...).

وفي سير نفوسة أن أبا عبيدة استعذر بأنه ضعيف المال، ضعيف البدن، ضعيف العلم. وقوله إن الإمام كتب إليه: إن كنت ضعيف البدن، فادخل في أمور المسلمين، يقوي الله بدنك. وإن كنت ضعيف العلم، فعليك بأبي زكريا

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 180 - 181.

(2) المصدر نفسه، ص 181.

(3) المصدر نفسه، ص 248.

(4) المصدر نفسه، ص 177.

في سير نفوسة أن
أبا عبيدة استعذر
بأنه ضعيف المال،
ضعيف البدن،
ضعيف العلم.
وقوله لكن الإمام
كتب إليه: إن كنت
ضعيف البدن،
فادخل في أمور
المسلمين، يقوي الله
بدنك. وإن كنت
ضعيف العلم،
فعليك بأبي زكريا
يصلتن التوكيتي،
وإن كنت ضعيف
المال، فبيت المال
يسعك ويسع غيرك

يصلتن التوكيتي، وإن كنت ضعيف المال، فبيت المال يسعك ويسع غيرك.

فلما ورد عليهم جواب الإمام، اجتمعوا إلى أبي عبيدة، وقالوا: «لا يسعك إلا الدخول في أمور المسلمين وطاعة إمامك. فقال: «أمهلوني حتى أستشير». فأتى عجوزاً معروفة بالعلم والورع والدين، تسكن بموضع يقال له: «إرجي أزمار»، فيما يقول محمد بن عبد الله بن محمد بن مصكود المجدي. فقال لها: «إن أمير المؤمنين بعث إلي بالولاية، فأشير علي!» فقالت: «إن علمت في نفوسة أفضل منك فتقدمت فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك فتأخرت فستكون خشبة في جهنم»، فقال: «أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلي». فرجع إلى المشائخ، فقبل الدخول في أمورهم. فلما ولوه، قال: «سيروا نزور وقاية، أفضل عمائنا».

فلما ولي الأمور، أحسن السيرة، وعدل في القضية، وساس الرعية، وصحب الأشياخ، ورضي به أهل الخير، مثل أبي زكريا - الذي [قيل في حقه] هو الجبل والجبل أبو زكريا - وأبي مرداس، وأبي الحسن الأبدلاني، وغيرهم ممن يكثر عددهم⁽¹⁾.

وهذه بهلولة زوجة علامة جبل نفوسة أبي ذر أبان بن وسيم الويغري الذي كان له مجلس علم في بيتها، وكانت امرأة صالحة فقيهة، وكانت ممن وافقه وطابقه علماً وعملاً وحسن عشرة⁽²⁾.

وهذه زورغ الأرجانية، من جبل نفوسة، كانت في زمان امتلاء الجيل بالإسلام فيه كالرمان، وقالت الناس: إنه من شدة ورعها ومن كثرة عبادتها ومن قوتها في الأمر والنهي، النصف عليها كثير والثلث قليل⁽³⁾. وكانت امرأة عابدة صالحة عالمة، وقد بلغت في قومها مبلغاً عظيماً، وكانت نموذج أخلاق الرعاية رعت أخت زوجها المريضة ألطف الرعاية⁽⁴⁾. وكذلك هي كانت أم يحيى امرأة صالحة عالمة...⁽⁵⁾ وأصيل المرأة الصالحة...⁽⁶⁾.

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 93 - 95.

(2) المصدر نفسه، ص 138.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 167 - 168.

(4) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 636 - 637.

(5) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 638.

(6) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 639.

«للعجائز بالجبل
وغيره شأن عظيم»
«ويقولون للفقه
علم العجائز»
العباس أحمد بن
سعيد الشماخي

نماذج من كفاح المرأة الإباضية من أجل التعلم والتحصيل

وكثيراً ما أفردت كتب السير بترجمة أم ماطوس. فقد أرادت العلم، وكانت بلدها جاراصرا، فكانت تروح من أجل تحصيله الكثير، قاطعة المسافات في الليالي، فكان إذا جنها الليل ونام الناس، أخذت رمحاً في يدها وذهبت إلى العلامة أبي محمد التمصيبي، فتحضر المجلس، فإذا افترق رجعت، وتجعل رمحها في زيتونة. فسمع أخوها بذلك، وصار يغلق عليها وينام على الباب، فكانت تتركه حتى ينام فتفتح وتغلق خلفها، فإذا رجعت دخلت وأغلقت... وحدث أن مرت، بعد أن تزوجت، إلى بلدة تندوزيغ لتحضر المجلس، فولدت بنتاً، فإذا ثقلت عليها، قالت: ألسنت ولدت في المجلس! فتترك ذلك...⁽¹⁾.

وهذه بنت العلامة أبي مسور يصلتن (من علماء نفوسة في الطبقة الخامسة: 200 - 250هـ/815 - 864م) قد ذُكر أن ابنته كانت عظيمة القدر في أهل زمانها. ومما يروى عنها الفوائد الكثيرة. فمما روي عنها مع أبيها أنها جلست معه ذات يوم، حتى قال: «المسلمون أفضل من أقوالهم»، فقالت هي: «أقوالهم أفضل؛ لأن المسلمين يموتون وتبقى أقوالهم، ينتفع بها بعدهم، إلا إن كنت تريد فضل الأجسام على الأعراض، وإلا أفعالهم والدين أفضل المخلوقات». قيل: وجلسا يوماً يتحدثان وقد غسلا ثيابهما ونشراهما للشمس، فنظر الشيخ إلى صفاء الثياب، فقال: «تمنيت أن الله عز وجل طهر قلبي كطهارة هذه الثياب»، فقالت: «تمنيت أن يكون بيدي تطهير قلبي فأطهره كهذه الثياب، وأرسله إلى مولاه»، فقال لها: «إنك أبلغ مني حتى في الأمانى»⁽²⁾.

ومن نساء جبل نفوسة يذكر صاحب تسمية مشايخ جبل نفوسة عجوزاً صالحة قالوا: معها ثلث علم الجبل [نفوسة]⁽³⁾.

ومنهن أم ميمون زوجة أبي ميمون: «كانت حزيمة لأُمور الأخرى وأمور الدنيا. ومن كثرة حفظها أنها سمعت رجلاً في طريق الحج ينشد قصيدة

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 270.

(2) الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 316، وانظر: الشماخي، ص 156. وانظر: أبو الربيع الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان عصابة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م، ص 264.

(3) تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، تحقيق تادايوش ليفيتسكي، ترجمة عبد الله زارو، منشورات مؤسسة توالث الثقافية، سلسلة الأبحاث التاريخية، رقم 1، مؤسسة توالث الثقافية، 2006، ص 30.

ثمانين بيتاً فحفظتها كلها»، ولما استشهد زوجها أمسّت «كهفاً للإسلام، ومأوى للأخيار، فكانوا يجتمع عندها عزابة أمسين في ليلة الجمعة، يتذكرون ويحيون ليلتهم في العبادة»⁽¹⁾.

وقصة الأمة غزالة أمة الواحد مؤثرة. جلبها مشتريها من بلد السودان، وجعلها قبل أن تسلم في سلسلة مع العبيد خشية الإباق، فكانت إذا سمعت القراءة قعدت على نفسها، وبركت على ركبتيها، واستمعت وأسلمت. فاشتراها رجل من أهل ويغوا، من جبل نفوسة، فكان دأبها أن تخدم مولاهما بالنهار، فإذا نام ونامت عياله، انصرفت فتحضر مجلس الذكر عند أبي محمد عبد الله بن الخير في تنوزيرف، فإذا انفض المجلس رجعت، فتأتي مصلى لها في كهف معلوم فتصلي (...)⁽²⁾ هكذا دأبها الذي دأبت عليه. هي ذي همة النساء.

”
قصة الأمة غزالة أمة
الواحد مؤثرة. جلبها
مشتريها من بلد
السودان، وجعلها
قبل أن تسلم في
سلسلة مع العبيد
خشية الإباق، فكانت
إذا سمعت القراءة
قعدت على نفسها،
وبركت على ركبتيها،
واستمعت وأسلمت
“

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 159.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 138 - 139.





كتاب الحكيم ومحاسن الكلم

«وكان يقول لنوح بن مالك: زر الأخيار يا نوح، فإن مَثَل من لم يلق الأخيار كجرو لم تفتح عيناه». وقال: «كيف يفلح من لا يرى مفلحاً؟».

من أخبار أبي صالح تبركت الياجراني



سأل عميرة بن راشد أباه الحكيم الفقيه راشد بن عميرة عن أمور أشكلت عليه وأخذت بمجامع قلبه - منها أمر «العقل والأدب»، فما كان من الأب إلا أن عمد - في تقليد بديع في الثقافة العربية الإسلامية - إلى تأليف كتاب خصه بابنه وبالناشئة من جيله سماه «منهاج المتعلمين»، وكان مما ورد فيه جواباً عن أسئلة الفتى الناشئ والفتيان من بلدييه ومجايليه:

«...» هذا مختصر في النكت الحكمية، مما سألتني عنه ولدي عميرة بن راشد بن عميرة بن ثاني خلف الهاشمي الرستاقى العُماني (...) فأجبتة بما صح عندي من المعرفة، على قدر السؤال:

اعلم - أيدك الله وأرشدك لطريق الرشاد - فيما سألتني عنه - عافاك الله عن العقل والأدب.

اعلم أن الأدب لا يكمل إلا بالعقل، فإذا تم العقل كمل الأدب.

واعلم أن العقل نور متصل بين القلب والدماغ، فإذا اتفقا لأحد، قد أعطي خير الدنيا والآخرة، وهما أفضل عطاء. وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة، عن العقل (وآياته)، وهي الحواس الخمس: النظر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس. وهذه الحواس تسمى: خدم الفؤاد، إذ لا يهتدي إلا بها ويكمل. قال المتنبي:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

واعلم أن العقل عقلان: عقل مثمر، وعقل عقيم.

فأما العقل المثمر، فهو الذي يبلغ صاحبه إلى توحيد الله تعالى، ومعرفته، وطاقته، ومرضاته، وأداء الواجب واللازم، واجتناب المنهي من الموبقات.

وأما العقل العقيم، فينقسم - أيضاً - إلى قسمين، أحدهما أوضع من الآخر، وهو ما بلغ صاحبه إلى درجة تبلغه المراد من أمور الدنيا، وتقف عن أمور الآخرة. والقسم الثاني منه وقف دون تبليغ المراد من أمر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين...».

وقد جاء الكتاب حافلاً بثمرات منثور التجارب ومشتت المعارف في الطب...

والحقيقة أن هذا الكتاب الوصية يذكرنا بصلة جميلة مماثلة جمعت في تراثنا العربي بين طبيب حكيم فيلسوف مترجم - هو حنين بن إسحاق - وابنه - إسحاق بن

اعلم أن الأدب
لا يكمل إلا بالعقل،
فإذا تم العقل
كمل الأدب

حنين - الذي سار على درب أبيه، وكان الابن يريد الانكباب على الحكمة وينشد المدخل الذي يؤنسه بها ويأخذ بيده برفق فيدله عليها، وكان الأب يريد لابنه أن يرتاض بعلم المنطق باعتباره المدخل الأمثل إلى العلوم الحكيمية كافة.

«وحكي أن إسحاق بن حنين قال لأبيه: ما الذي تشير عليّ بأن أجعل غرضي معرفته في سنّي هذه التي أنا فيها، بحسب ما أعلم من عنايتك بي، وما تعلم من تهيؤ طبعي لقبول العلم، ومن قديم تجربتك لي، ومن حرصي على العلم؟»

قال حنين: ما لست إلى شيء أشد ضرورة منك إليه إذا كانت ذاتك الخاصة التي أمرك الحكيم الأول بتعرّفها، وهي أنت بها مشارك الباري - جل ثناؤه - ومنفصل من البهائم؟

قال إسحاق: وما ذاك؟

قال حنين: الشيء الذي تعلم أن اليوناني يسميه «لوغس» [Logos]، وأن العربي يسميه في بعض المواضع «نطقاً»، ولذلك يسمي الإنسان من النطق «ناطقاً»، ويسميه في بعض المواضع «قولاً»، وليس من عادته [أي العربي] أن يشتق من القول اسماً للإنسان، كما من عادة اليوناني أن يسميه من «لوغس»: «لوغوتيس» [Logotes]، ويسمي النظر في هذا الجزء من الإنسان الذي هو أشرف أجزائه - وهو الذي يسميه العربي نظراً منطلقاً «نظراً لوغسياً»، مشتق من «لوغس»: أي القول.

قال إسحاق: فإذا كانت الكتب التي في هذا الفن والواصفين لها كثيرين، فأرشدني إلى كتاب ومواضع منه يجب أن أبتدئ أولاً.

قال حنين: من كتاب «قاطيفورياس» [المقولات] الذي للحكيم [يعني أرسطوطاليس].

قال إسحاق: ولم اخترت لي كتاب «قاطيفورياس»، أولاً، ولم جعلته للحكيم؟

قال حنين: أما كتاب «قاطيفورياس» فلأنه ابتداء هذا العلم. وأما الذي للحكيم، فلأنه ليس غيره موجوداً في هذا الوقت مما يعلم به هذا المعنى المقصود.

قال إسحاق: إن هاهنا كتاباً آخر لواقع آخر في هذا المعنى لو كان موجوداً لكنت إلى اختياره أميل؟

حكي أن إسحاق بن حنين قال لأبيه: ما الذي تشير عليّ بأن أجعل غرضي معرفته في سنّي هذه التي أنا فيها، بحسب ما أعلم من عنايتك بي، وما تعلم من تهيؤ طبعي لقبول العلم، ومن قديم تجربتك لي، ومن حرصي على العلم؟

قال حنين: نعم كتاب أرخوطس [Archytas] في هذا المعنى.

قال إسحاق: ومن أرخوطس؟

قال حنين: إنسان من شيعة فيثاغوراس.

قال إسحاق: ومن فيثاغوراس هذا، ومتى كان؟

قال حنين: رجل كان هو المبتدئ لأكثر حكمة اليونانية. وليس إنما هو في الزمان ما قبل الحكيم [أرسطوطاليس]؛ ولكن قبل أفلاطون أيضاً؛ وعنه أخذ هذا العلم، وليس هذا الفن من النظر فقط، بل جميع الفنون الباقية. وكذلك أوقليدس وأبلونيوس وأرشميدي وبطليموس وسائر المهندسين⁽¹⁾.

والتقاط الحكمة من أفواه أهل عُمان وغيرهم أمر عجب.

هذا الخليل بن أحمد الفراهيدي أيقونة العالم العُماني تؤثر عنه أقوال حكمية لطيفة المأخذ.

ففي تفضيل الوحدة والعزلة على الخلطة والاجتماع، ينسب إليه القول:

«إني لأغلق عليّ بابي، فلا يتجاوزهمي».

وأنت واجد من الحكم الفلسفية العميقة لدى غير الفلاسفة المحترفين ما تجده عادة لدى أهل الفلسفة المختصين، بل لربما أكثر.

خذ هذه الأمثلة الأربعة:

يؤثر عن البابا جريجوار الكبير قوله: «إن الكتابة [المقدسة] تربو وتزكو بالقراءة»، قاصداً بذلك أنه كلما قرأنا الكتاب المقدس عن لنا معنى جديد، وبدت لنا دلالة مستحدثة، ولاحت لنا لفظة عجيبة، بما يجعل الكتاب المقدس يغتني معنى بقراءتنا له، ويتأثر دلالة بمطالعتنا. فالقراءة بهذا مغنية للنص مثرية مكثرة. على أننا نعثر على الفكرة عينها عند الإمام محمد بن عبد الله الخليلي الذي يحكى عنه أنه قرأ كتاب «شرح كتاب النيل وشفاء العليل» للعلامة القطب أطفيش ست مرات حتى ثقفه. كما نعثر لها على نظير عند أبي محمد ويسلان بن يعقوب الذي كان يقرأ الكتاب القراءة حتى يحفظه، ثم يعيد قراءته مائة مرة.

(1) أبو سليمان المنطقي السجستاني: صوان الحكمة. تحقيق عبد الرحمن بدوي، طهران 1984، ص 281 - 282.

يقول البابا جريجوار:
«إن الكتابة
[المقدسة] تربو
وتزكو بالقراءة»
بمعنى أنه كلما قرأنا
الكتاب المقدس عنى
لنا معنى جديداً

وروى عنه أحد تلامذته: «من قرأ الكتاب مرة إنما قرأ كتاباً واحداً، ومن قرأه مرتين فكأنما قرأ كتابين، وكذلك على حسب ما قرأت». كما نقل عنه القول: «ذواق الكتب لا يتعلم»؛ أي الذي ينتقل من كتاب إلى كتاب لا يثبت على قراءة كتاب من شدة مله وضيق عطنه، إنما هو في الحقيقة ينتقل، ومن شأن من يدأب على أن ينتقل ألا يتعلم أي شيء⁽¹⁾.

وبالتطبيق لهذا المبدأ العظيم، كان رجل يدعى أبا صالح - واسمه «تبركت» - إذا كتبوا له سورة من القرآن في اللوح، فكان يقرؤها أياماً عدة حتى تدرس وتمترش [تزول بالخدش] الكتابة من اللوح، فيغسلونه ويعيدون كتابة تلك السورة التي غسلوها في اللوح، فيقول لهم: «ما أحسن هذه السورة يا ابن أخي! أترون أنني قرأتها قط؟!»⁽²⁾ وذلك كله فرحاً باكتشاف معنى لها جديد قادته إليه غفلته، ونعم الغفلة هي.

معلوم هو منذ الفيلسوف الألماني كانط على الأقل، أن النظر في الأمور الغيبية - التي يسميها الفلاسفة الأمور الميتافيزيقية (أمور ما وراء الطبيعة) - نظر عويص إن لم يكن محالاً. من منا لا يتذكر قول برتراند راسل الذي يشبه فيه البحث عن الحقيقة في الميتافيزيقا - الماورائيات، الغيبيات، ما بعد الطبيعة - بالبحث عن قطة سوداء في بيت مظلم؟

لكن ما القول إذا وجدنا عالماً عربياً مسلماً قد خطرت بذهنه هذه الفكرة مند أمد طويل؟

قال أبو زكريا يوماً لتلامذته:

«ما أرى من ينظر في هذه المسائل [يعني مسائل التوحيد؛ أي المسائل العقدية أو بلغة الفلاسفة مسائل الإلهيات أو الميتافيزيقا] إلا كطبيب أعمى في ليلة مظلمة يداوي في كبد مريض بسكين حادة، فكيف ينجو إلا أن ينجيه الله، والنظر في هذا أمر شديد، وتركه لا يُصاب»⁽³⁾.

ومن المسائل المغيبة إلى المسائل الاجتماعية، ما رأي القارئ في ما كان ذهب إليه الفيلسوف الألماني شوبنهاور من أمثلة ترمز إلى صلة الإنسان

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 619.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 806.

(3) أبو الربيع سليمان بن يخلف الميزاتي: كتاب السير، ص 38.

قال أبو زكريا يوماً
لتلامذته: «ما أرى
من ينظر في هذه
المسائل [يعني
مسائل التوحيد؛ أي
المسائل العقدية أو
بلغة الفلاسفة
مسائل الإلهيات أو
الميتافيزيقا] إلا
كطبيب أعمى في
ليلة مظلمة يداوي
في كبد مريض
بسكين حادة، فكيف
ينجو إلا أن ينجيه
الله، والنظر في هذا
أمر شديد، وتركه
لا يُصاب»

بالإنسان، من حيث إنه إذا ما هو اقترب الإنسان من الإنسان خاصمه، وإذا ما هو باعد الإنسان من الإنسان اشتاق إليه، فقال: «مثل الإنسان والإنسان كمثل حيوان الشيهم. يحكى أنه ذات صبيحة باردة، تضامت الشياهم إلى بعضها البعض طلباً للدفع، لكن سرعان ما شعرت بالآلام حادة تعصرها من وخزات مشاوكها، فما لبثت أن ابتعدت عن بعضها البعض. يَبْدُ أنه سرعان ما عاودها الإحساس بالبرد، فكان أن دفعتها غريزتها إلى الالتصاق ببعضها البعض من جديد، وكان أن عاد الألم مرة أخرى يعتورها، وهكذا أمضت سحابة يومها تجرب الموقف المرار العدة إذا ما هي تقاربت تألمت وإذا ما هي تباعدت بردت... على أنها ما فتئت تجدد الاقتراب والابتعاد والروح والغدو إلى أن هي أدركت المسافة الوسط، فلزمتها». وكذلك تجد الحكيم الإباضي أبا عبد الله بن بكر يشبه الناس بالسبخة إذا ابتلت أزلقت وإذا جفت خدشت. أبلغ من هذا، تراه يشبههم بالتيوس إن اجتمعوا تناطحوا، وإن افترقوا تصايحوا⁽¹⁾.

فإلى مسألة العبودية التي حيرت الشيخ المنصور بن عبد الغني، حتى قال: «سألت الشيخ ماكسن، فقلت له: «من أي شيء وقعت العبودية في بني آدم وآدم وحواء حران؟».

وطرح بعده الفيلسوف الفرنسي الشهير جون جاك روسو (1712 - 1787م) سؤالاً استنكارياً شبيهاً به، وذلك لما هو افتتح به كتابه الذائع الصيت: «العقد الاجتماعي» (1762م)، بعد أن لاحظ: «ولد الإنسان حرّاً، وفي كل مكان هو الآن يرسف في الأغلال».

وكان أبو زكريا فيصل بن أبي مسوار هذا حكيماً.

قال: سمع رجلاً يبكي ويبالغ في بكائه، فقال له: ما الذي يبكيك؟ فقال له الرجل: قلب كان لي فقدته، فقال في إثر كلامه: لا يبكي الباكي على مثل هذا إلا وفي قلبه حياة⁽²⁾.

ومعرفة منه بأوهام العشيرة ونعرة الطائفة التي يُنشأ عليها الفرد التنشئة، فتصير له عادة منشئية قلما يتخلص منها، قال: «من أراد أن يكون حكيماً، فلا يجالس عشيرته»⁽³⁾. والذي يفسر هذا قوله: «ترى الرجل يصلّي ويصوم، ويدّعي

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 364. وانظر أيضاً: الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 824.

(2) أبو الربيع الميزاتي: السير، ص 42.

(3) أبو الربيع الميزاتي، السير، ص 56.

قال الشيخ المنصور بن عبد الغني: سألت الشيخ ماكسن، فقلت له: من أي شيء وقعت العبودية في بني آدم وآدم وحواء حران؟

الورع والخشوع، فإذا ذكرت قبيلته حامى عليها، ومال بقلبه إليها، نعوذ بالله من الحمية والعصبية والرياء وحب المحمدة والثناء»⁽¹⁾. وكان الرجل ينهى عن التداعي بالقبائل: أن يقال: نحن بنو فلان، ونحن بنو فلان⁽²⁾. وقال غيره: ليس منا من يجلس في بيته، ويعد أهل بيته وقرايته، فيقول: نحن بنو فلان في كذا وكذا، وليس منا من يصقل رمحه ويسويه ويدهنه، ويوقفه على باب خصمه. وليس منا من إذا ربط العمامة سوّأها على جبهته وفرشها. وقد كره هذا كله لأنه يجر إلى الحمية والعصبية والكبر والاستطالة وما لا يليق بأهل الخير⁽³⁾. وقال أيضاً: «من كان لقبيلته منهم سهم. إذا ذكروا (عشيرته) بسوء تغير وجهه واغتاظ بقلبه. وإن كانت لهم حوائج مع غيرهم في خصومة أو غير ذلك، فلا يستتون عنده مع غيرهم (من العشائر الأخرى). فهذا قلّت نجاته وخلصه، إلا أن ينجيه الله. ولا ينبغي للمسلم إلا أن يكون مع الحق قريباً كان أو بعيداً، حبيباً كان أو بغيضاً، ربيعاً كان أو وضيعاً»⁽⁴⁾. ويذكر عن الشيخ صالح بن علي الحارثي أنه كان ينبذ التعصب الذي أودى بأهل عُمان في زمانه، فمن قوله: أما بعد، فإنني جئت مع نفسي لا مع عبري ولا ريامي ولا كندي، ولا مع غيرهم، بل جئت مع الحق، والحق مع من اتّبع الهدى، وله أردت».

وكان أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي حكيماً ذكر أبو عبد الله أن المشايخ يذكرون عنه كلمتين من الحكمة في أمرين هامين، واحد: حول صلة الإسلام بالبساطة، والثاني: هو رحمة الاختلاف.

كان يقول: «حمدنا الله الذي لم يجعل الإسلام في الكبر والعلو، وإنما جعله في الخشوع والتخضع والتعبد والإذعان، فلو جعله في الكبر والعلو، وإنما جعله في الخشوع والتخضع والتعبد والإذعان، فلو جعله في الكبر والنعوة والعلو أدركه الملوك والأغنياء والمترفون، ويفوت المساكين والضعفاء والفقراء».

كما كان يقول: حمدنا الله الذي جعل اختلاف أهل الدعوة مثل اختلاف المسافرين في طريقهم وفي نزولهم وارتحالهم، والسرعة وترك العجلة، الكل إنما يريدون السلامة، وحيث لا يقطنون، والسياسة وصولهم بغير خطر ولا ضرر⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 59.

(2) المصدر نفسه، ص 63.

(3) المصدر نفسه، ص 62 - 63.

(4) المصدر نفسه، ص 63.

(5) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 564.

حمدنا الله الذي لم
يجعل الإسلام في
الكبر والعلو، وإنما
جعله في الخشوع
والخشوع والتخضع
والتعبد والإذعان،
فلو جعله في الكبر
والعلو أدركه الملوك
والأغنياء والمترفون،
وفوت المساكين
والضعفاء والفقراء

وكان أبو عبد الله محمد بن بكر حكيماً، امتلاً ما نقل عنه بكلمات من الحكمة، منها قوله في العدل والإنصاف: «من حكم على نفسه كما يحكم على غيره فقد عدل، ومن أعطى من نفسه مثل الذي يريد لها فقد أنصف. لأخيك عليك مثل الذي لك عليه»⁽¹⁾.

وفي موضوع الصداقة والصديق، قال يوماً لرجل يوصيه: «اتخذ لنفسك مرآة تنظر فيها وجهك لئلا يدنس عليك ولا تشعر - وهو الصاحب الأخ الودود الشفوق -». قيل له: «من الذي ينبغي لنا أن نتخذه خليلاً؟» قال: «الذي يكفيك مؤونة نفسه، ويعينك على نفسك، والذي يعظك برويته قبل أن يعظك بكلامه، والذي يرى لنفسك ما يرى لنفسه، الراغب في قربك، الشحيح على فراقك، الوافر عقله، الهارب بدينه، الشفوق على لحمه ودمه. فهذا أقل ما يوجد. وهو أعز من الكبريت الأحمر (لندرته)»⁽²⁾. وقد تداولوا قول القائل: «إذا بث الرجل ما يهمله إلى حبيبه طرح عن نفسه شطره»⁽³⁾. وقال أبو عبد الله محمد بن بكر: «الأصحاب اثنان، أحدهما: يفديه الرجل بماله ولا يفارقه، والآخر: يعطي الرجل ماله كله ليفارقه»⁽⁴⁾.

وفي السياق نفسه، نجد العالم أبا محمد التغرمني يؤكد على أمرين بهذا الخصوص: ضرورة الصداقة، وإمكان قيام الصداقة بين الرجل والمرأة، وذلك بقوله: «ولا ينبغي للمسلم أن يبقى بغير صديق يفشي إليه سره، ويشترك معه همومه. فإن لم يجده من الرجال، اتخذ من النساء، والعكس للنساء»⁽⁵⁾. على أن الصداقة التي عناها العلامة هنا صداقة بريئة غير آثمة، روحية غير جسدية، عاقلة غير أهوائية. ولعمري فإن المدى الذي ذهب إليه هذا الحكيم، حد الحديث عن صداقة الرجل والمرأة وصداقة المرأة والرجل في مجتمع محافظ، شأن مجتمعات إباضية شمال إفريقية، لم يكن يمنع ورود العديد من الحكايات عن علماء صادقوا نساء، ليكاد يكون نادراً في الثقافة العربية الكلاسيكية برمتها، يكفي أن نذكر أن أعظم ما ألف عربياً وإسلامياً في حكمة الصداقة - كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي - لم يتجاسر على طرح هذه المسألة، وحتى في الثقافة الغربية، فإن أول من استشكل أمر الصداقة ووجد أن من حدود

ولا ينبغي للمسلم أن يبقى بغير صديق يفشي إليه سره، ويشترك معه همومه. فإن لم يجده من الرجال، اتخذ من النساء، والعكس للنساء

(1) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 832.

(2) أبو الربيع الميزاتي، السير، ص 56.

(3) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 798.

(4) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 837.

(5) الشماخي، كتاب السير، ص 187.

مفهوم الصداقة في الفكر الغربي هو الصمت المطبق لهذا الفكر، في مجمله، عن أمر الصداقة بين الرجل والمرأة، ذلك ما أثاره الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاك دريدا في الكتاب الذي خص به موضوع الصداقة: سياسات الصداقة.

وبالتطبيق، كم من حكيم منهم اتخذ امرأة عالمة صديقة؟

هذا العلامة أبو حسان خيران بن ملال الفرستائي كان كثيراً ما يمكث عند أم الربيع الوريورية، وكانت سخية ومأوى للأخيار، وربما أقام زماناً من الدهر، ويجعل للناس المجلس عندها. وأظله عيد الأضحى مرة وهو عندها. وأرسلت إلى بيته بشاة، وجمعت جميع ما يحتاج إليه في العيد فأرسلت به إلى بيته مع الشاة [وهو لا يعلم كل ما فعلت]، وقد عول أن يضحي عندها وما عنده من يعول عليه. فقالت: «بادر أهلك وولدك، وكل عندهم العيد! ولا علم له، فلما وصل وجد كل شيء يحتاج إليه وقد هيئ له، وهذه بمناقب أم الربيع أولى⁽¹⁾، وهي بالصداقة بين الرجل والمرأة أعلق.

وفي آداب المعاملة والصفح والغفران، كان أبو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني يقول: «إن نفسي لتسمح بالإحسان إلى من أساء إليّ، أكثر مما تسمح إلى من أحسن إليّ»⁽²⁾. وروي عن أبي مسور: «إنما الدين بالورع والحرص، والدنيا بالسياسة والتلطف، والرجل بالعقل»⁽³⁾. وكان الإمام محمد بن عبد الله الخليلي يقول: «إنما ينبغي أن نعتب على أنفسنا قبل أن نعتب على سائر الناس، وأن ننصف من أنفسنا قبل أن ننصف من الرعايا».

وقد أحبوا العمل والشغل حد الموت في حبه. فقد كان العلامة الفقيه العُماني ناصر بن أبي نبهان يذكر العلامة علي بن سليمان العزري ويقول فيه: «إنه حاز الفضائل، وهو أفضل إخوانه في أهل زمانه؛ لأنه أعمى وتسبب لمعيشته وكسوته من كد يده، وعف عما سوى ذلك، وجعل مدرسة لإخوانه». (أورده صاحب النمير).

ففي ترجمة الشيخ خيار التمكنرتي أنه زاره بعض المشائخ فلم يجدوه، فأرسلوا إليه من وجده يعزق. فقال: شيخ يزوره الأشياخ وهو يعزق! فسار معه إلى المشائخ، ولم يجبه بشيء. فصافحهم وأدخلهم البيت، وقدم إليهم شيئاً. فلما أكلوا، قال: «أحكموا بيني وبين هذا، لو لم أعمل شغلي لم أجد ما أقدم لكم!»⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 260.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 404. وانظر أيضاً: الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 845.

(3) الوسياني: السير، الجزء الثاني، ص 868.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 281.

في مديح الشغل
وذم التبطل:
«أحكموا بيني وبين
هذا، لو لم أعمل
شغلي لم أجد
ما أقدم لكم!»

وفي ترجمة أبي سهل أبي يوسف وجد ليش بن في، أنه كان من اجتهاده أنه حين يكون يتعلم يكون يخرط الزيتون، ولوحه معلق بين عينيه يقرأ فيه⁽¹⁾.

فقد ذكر في ترجمة أبي هارون الجلالمي البغطوري أنه كان حزيماً لدنياه وأخراه، وأنه كان غراساً للشجر، وذكر أنه كان يجني من أشجار التين ثلاثمائة مُدِيّاً، وأنه كان قادة في الدين؛ أي إماماً يقتدى به، يطعم مائة لعياله ومن يأمنه، ومائة للأضياف وأبناء السبيل، ومائة لتلامذته ومن يتعلم. وكان في ابتداء أمره يعمل شغله في ربه إلى العشية، فيمضي إلى الشيخ أبي القاسم البغطوري يتعلم، ثم يدرس، ثم يرجع مصباحاً لشغله، وكان ذلك دأبه⁽²⁾.

أوصى أبو خليل الدرلشي تلميذه أبا ذر أبان بن وسيم الويفري، قال: «إن قدرت ألا يصلك الموت إلا في حفرة غرس الشجر، فافعل!»⁽³⁾.

وقد ورد في سيرة أبي سهل بن محمد التندميرتي أنه كان عالماً، وكانت عنده حلقة، وكان لا يأخذ الزكاة، وكان تاجراً، وسيرته وعادته: إذا صلى الفجر استفتح، مضى لشغل دنياه، ثم يرجع إلى القائلة، فيقبل. وإذا قرب وقت الظهر، قام وتوضأ ولبس ثوبين؛ أي قميصين معقودين بطوق واحد وعمامة حسنة وكساء وسجلماسية، ثم يذهب إلى مسجد امسراتن بجادو، فيؤذن ويصلي، ولا يزال في الصلاة والعبادة إلى العصر، فيؤذن ويصلي، ثم يعمل المجلس لتلاميذه إلى المغرب، فيصلي، ثم إلى العشاء الآخر؛ يعني العتمة...⁽⁴⁾ هو ذا دأبه أهد حياته.

وفي قضائهم، حاول الكثير من حكمائهم أن يكون منصفاً غاية الإنصاف. هذا القاضي النفوسي أبو يحيى زكريا الأرجاني، ذكر في السير أنه كان إذا جلس للحكم يقول: «اللهم أعط الحق لذي الحق يا ذا الحق، ولا حجة لمحتج إذا احتج بلا حق»⁽⁵⁾. وما اكتفوا بالتشديد على ضرورة إنصاف الغير، وإنما تجاوزوا ذلك إلى الدعوة إلى الانتصاف من النفس، أوليس كتب أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي إلى أبي محمد التغميني: «كُلِّ [زِن] نفسك بمكيال العلم، وزنها بميزان الورع، وخذ لها منها، وخذ لما في يدك»⁽⁶⁾؛ وأوصى أبو يوسف الطرفي السدراتي ابنه، قال:

كُلِّ [زِن] نفسك
بمكيال العلم، وزنها
بميزان الورع،
وخذ لها منها،
وخذ لما في يدك

(1) المصدر نفسه، ص 294.

(2) المصدر نفسه، ص 220.

(3) المصدر نفسه، ص 138.

(4) الشماخي، كتاب السير، ص 294.

(5) المصدر نفسه، ص 172.

(6) المصدر نفسه، ص 168.

«لا يكن ندبك للناس للخير أوكد من ندبك نفسك إليه، ولا يكن غيرك أسبق إلى الحرث منك، وكن للناس كالميزاب، وكالسييل للأدران، وكالسمار للماء»⁽¹⁾.

واتخذ بعض حكمائهم من الفتنة موقفاً حكيماً. قال الشيخ أبو عمار عبد الكافي: إذا كانت الفتنة، فأحب إليّ أن يصطلحها، فإن لم يكن ذلك، فأحب أن لا تغلب فئة أخرى؛ لأن من أراد أن تغلب فئة أخرى دخل في الفتنة ولزمه ما لزم تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دماً بينهم⁽²⁾.

وفي تخلية النفس من غير المعرفة وتحليتها بالمعرفة، ورد عن أبي الخير الزواغي أنه كان إذا أراد أن يرجع إلى أهله من الحلقة، أخذ شفرة له فصقلها وحملها إلى أهله، فيرشقها عند جوائز الخيمة مقابل الدخان، فإذا رآها صدئت وعلاها الخبث، قال: «إن قلبي [صار] مثل هذه المدية»، فيرجع إلى الحلقة، فهذا دأبه إلى أن مات...⁽³⁾.

وفي حفظ الأوقات واهتبال الفرص، قال الحكيم أبو عبد الله للشيخ يحيى بن ويجمن ناصحاً: «العمل في غير حينه ضعيف، والحين في غير عمله ضائع»⁽⁴⁾ ومثل هذه الحكمة وردت أيضاً على لسان الحكيم أبي عبيد الله محمد بن بكر⁽⁵⁾. وبالتطبيق، قال الشيخ سعيد بن خلف الخروصي عن العلامة خلفان بن جميل بن مهيل السيابي: «صحبته اثني عشر عاماً، فرأيت أوقاته موزعة في فضائل الأعمال شأن الكمال من الرجال، فلا تجده إلا مصلياً أو ذاكراً أو داعياً مستقبلاً المحراب أو تالياً الكتاب أو كاتباً أو مملياً أو حاكماً بفصل الخطاب في دعوى، لا يخلو مجلسه من طالب علم أو مسترشد أو زائر في الله أو مسترشد لا ييخل بوجود كما لا يتكلف المفقود، لا تسمع في مجلسه أحاديث الدنيا بل همته ميالة إلى الصفات العليا». (أورد الشهادة صاحب النمير).

وفي امتحال العذر للحليم في موطن الشدة، قال الشيخ إبراهيم بن إبراهيم الدجمي: «إذا رأيت الحليم في موضع يزدري به فيه، فلا تعجل عليه باللوم، فلو رأيت ما نزل به من الدواهي لكنت أعذر له من نفسه»⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 233.

(2) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 620. وانظر أيضاً: الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، الجزء الثاني، ص 491.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 652.

(4) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 724.

(5) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 831.

(6) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 728 - 729.

لا يكن ندبك للناس
للخير أوكد من ندبك
نفسك إليه، ولا يكن
غيرك أسبق إلى
الحرث منك، وكن
للناس كالميزاب،
وكالسييل للأدران،
وكالسمار للماء



كتاب آداب معاملة الغير

«خذ الحكمة أين رأيتها، فإن العاقل يأخذ الحكمة لا يبالي على أي حائط كتبت، وعلى أي رجل نقلت، ومن أي كافر سمعت».

أحمد الرفاعي

أورد ابن أبي أصيبعة في ترجمة الطبيب الحكيم الموفق بن شرعة ما يلي:

«كان من أعيان العلماء وأفاضل الأطباء، إسرائيلي مشهور بإتقان الصناعة وجودة المعرفة في علم الطب والكحل والجراح. وكان دمثاً خفيف الروح كثير المجون، وكان يشعر ويلعب بالقيثارة. وخدم الملك الناصر صلاح الدين بالطب لما كان بمصر، وعلت منزلته عنده. وكان بدمشق فقيه صوفي صحب محمد بن يحيى وسكن خانقاه السمساطي، كان يعرف بالخوبشاني، ويلقب بالنجم، وله معرفة بنجم الدين أيوب وبأخيه أسد الدين. وكان الخوبشاني ثقیل الروح، قشفاً في العيش، يابساً في الدين، يأكل الدنيا بالناموس. ولما صعد أسد الدين مصر تبعه ونزل بمسجد عند دار الوزارة يعرف بمسجد الخوبشاني. وكان يثلب أهل القصر ويجعل تسبيحه سبهم، وكان سلطاً. ومتى رأى ذمياً ركباً قصد قتله، فكانوا يتحامونه. ولما كان في بعض الأيام رأى ابن شرعة وهو راكب، فرماه بحجر أصاب عينه فقلعها...».



نظر العديد من حكمائنا إلى «الغير»؛ أي ما خالف الذات - أكان نباتاً أم حيواناً أم إنساً - بعين الحكمة. فعاملوه بوفق مبدأي «الاختلاف» و«الرحمية». وهكذا، فإنهم، من جهة أولى، اهتموا غاية الاهتمام بالنباتات، وحتى وهم في حجهم فكروا فيها وفي جلب المفقود منها في بلادهم إليها. فقد حمل أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف من الحجاز ستة غروس: البرني، والعجوة، والصيحاني، وأم جردان، وقضب الجيب، وغرس من جرمة، فغرسها ببلده، فقامت كلها، وقد جعلها في سقاء ماء⁽¹⁾.

ونصح أبو خليل أبا ذر بن أبان بن وسيم بالقول: «واغرس الأشجار، ولو يجدك ملك الموت في حفير الفسيل»⁽²⁾.

وأعظم صور الصحبة بين إنسان ونبات وجدناها عندهم. ذلك أنه لئن هو كان قد فكر الصوفي ابن عربي في ما سماه «صحبة غير الأشكال وغير الجنس [من غير البشر]»، قاصداً بذلك أن صلة «الصحبة» ليست تكون وحسب بين الإنسان وجنسه - إنسان/إنسان - وإنما مطلوب فيها أيضاً أن تحدث بين الإنسان وغير جنسه - إنسان/نبات، إنسان/حيوان - وهو ما عبر عنه حين الحديث عن الإنسان وعن «صحبه لما يملكه من الدواب والأشجار وما يصحبه من ذلك وإن لم يملكه»، فما كان ملك الشيء أو الكائن الحي شرطاً في صحبته. ومقتضى هذه الصحبة معاملة الغير، غير الأدمي أكان نباتاً أم حيواناً - معاملة رقيقة وصحبة ورحمة ورأفة. إذ المطلوب من كل إنسان إنسان: «إن [هو] رأى شجرة ذابلة لاحتياجها إلى الماء، وإن كان مالكة حاضراً، وقدر على سقيها في صحبة تلك الساعة حيث استظل بها أو استند إليها طلباً لراحة تعب، أو وقف عندها ساعة لشغل طراً له - فهذه كلها صحبة - وهو قادر على الماء، فتعين عليه رعي حق الصحبة أن يسقيها لذلك، لا لأجل صاحبها ولا طمعاً فيما تثمر، سواء أثمرت أم لم تثمر، أو كانت مملوكة أو مباحة. وكذلك الحيوانات المؤذية وغير المؤذية، فإنه في كل ذي كبد رطبة أجر»⁽³⁾.

وفي سيرة الإمام أحمد بن سعيد السعدي الأزدي العُماني شيء جلل من هذا القبيل. إذ يذكر ابن رزيق أن من مكارم أخلاق الرجل أنه مضى قبل أن ينتهي الأمر إليه من عُمان يريد سمايل لبعض الوطر، فلما كان حذاء وادي حلفين لفحته

نصح أبو خليل
أبا ذر بن أبان بن
وسيم بالقول:
«واغرس الأشجار، ولو
يجدك ملك الموت
في حفير الفسيل»

(1) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 369.

(2) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 717.

(3) محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، المجلد الثالث، ص 334.

الشمس، فتظلل بظل دوحة كبيرة، ثم مضى بعد دلوك الشمس [ميلها إلى الغروب] إلى سمايل. فلما انتهى الأمر إليه، مضى ذات سنة من الرستاق يريد نزوى، ومعه قوم كثير من أحرار وعبيد على ركاب وخيل، فلما كان بحلفين التفت يميناً وشمالاً، فلم ير تلك الدوحة، فقال في نفسه: لعلها ماتت، ثم تتبع أثرها على ناقته، فرأى أصلها قد جف، وللشمس لعاب من الحر، فنزل من ظهر ناقته إلى الأرض، ونزل الركب معه، فأمر أن يفرش له حذاء أصل تلك الشجرة التي جف أصلها، فأقال بالقوم في ذلك الحر الشديد، فتعجب الركب منه.

فلما وصل إلى نزوى سأله بعض قضاة الذين صحبوه عن سبب مكثه مع أصل تلك الشجرة التي جف أصلها. فأخبره عن تظلمه بغصونها أيام اخضرارها، وقبل أن يفضي إليه الأمر الذي انتهى إليه، فقال له القاضي: أتكرم من لا يعقل وقد مات؟ فقال له: إنما الحر الذي لا ينسى الإحسان، فمن نسي الإحسان فليس بحر. فينبغي للحر ألا ينسى إحسان الناطق والصامت. فقال له القاضي: حسبي، فإنه لحكمة لا ينبغي أن ينساها الحر الأريب⁽¹⁾.

ومن معاملة النبات إلى معاملة الحيوان، الأهلي والوحشي، هذه فصول منتزعة في معاملة الحيوان؛

يعد أبو المهاصر - الشيخ النفوسي - أنموذج المعاملة الحكيمية الرحمية بالحيوان، فقد أدرك مقام الرحمية، وهو مقام قلما يدرك:

فقد حدث ذات مرة أن جمع الصبيان وأعطاهم، ثم أعطى لهرة معهم، وقيل: جروء⁽²⁾. وخرج مرة إلى مصلاه الذي بأشبيعان أو غيره، فمر بطيبة ولدت في الطريق، وهي ترضع طلاها، ففرت منه حين أبصرته، فقال لها: «إرجعي يا مسكينة، أنا موسى بن جعفر»، فيقال: إنها اطمأنت له وسكنت إليه فرجعت، فقال مخاطباً إياها: «ولدت في الطريق، فيضرك الناس». فأخذ ولدها حتى أبعد من الطريق، ومضى وتركه لها⁽³⁾. وذكر غير واحد أنه سمع نقنقة ضفدع، فنظر إلى فيه، فأبصر علاقة متعلقة به. فقال مخاطباً إياه على سبيل المواضعة: «إفتح

(1) حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى

عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص 311 - 312.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 115. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 537، والدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 307.

(3) المصدر نفسه، ص 115. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 537.

قال له القاضي:
أتكرم من لا يعقل
وقد مات؟
فقال له: إنما الحر
الذي لا ينسى
الإحسان، فمن نسي
الإحسان فليس بحر.
فينبغي للحر ألا
ينسى إحسان
الناطق والصامت.
فقال له القاضي:
حسبي، فإنه لحكمة
لا ينبغي أن ينساها
الحر الأريب

فاك!)»، ففتح الضفدع فاه، فنزعها منه، وقال مخاطباً إياه: «كادت أن تقتلك يا مسكين!» ومر مرة على جماعة أهل دجي أو زعرارة راكباً على حمارته، ومعها جحش يتبعها. فقالوا لبيتهم: لو طلبته لأعطاكه. فقام اليتيم فطلبه عند أبي مهاصر فأعطاه له. وسار بأتانه فامتعت من السير لأجل ولدها، فرق لها، فعاد إلى اليتيم واشترى منه الجحش بدينارين⁽¹⁾.

ويروى من حسن أخلاق الإمام سلطان بن سيف اليعربي أنه كان له حب في الخيل، ولم يرض أن تعطى شيئاً من الطعام إلا مع حضوره، خوفاً ألا تعطى ما يكفيها. وحدث أن دخل شهر رمضان، في بعض السنين، فكان كلما صلى المغرب بدأ بإطعام الخيل قبل نفسه، فيقف إلى أن تطعم الخيل بما يكفيها، فيطلع إلى الحصن مع زوجاته وأهل بيته.

وفي فتنة من الفتن التي مرت بها عُمان، في عهد إمامة المهنا، عمد قائد جيش هو المطار الهندي ومن معه من سفهاء الجيش إلى دور بني الجلندي، وقد كانوا تحركوا وقد رأسهم المغيرة بن روشن الجلندي، فأحرقها بالنيران وفي الدور الدواب مربوطة من البقر وغيرها، وكان رجل من السرية يلقي نفسه في الفلج حتى يبتل بدنه وثيابه ثم يمضي في النار حتى يقطع عن الدواب حبالها وتنجو بنفسها من النار...⁽²⁾.

وحدث أن تجردت نفوسة الجبل لإصلاح الأسواق، في زمن حكم أبي اليقظان، فما كان من القيمين على الأمر إلا أن عاقبوا القصاب [الجزار] على نفخ الشاة، ومنعوا الحمال على دابته أن يحمل عليها فوق طاقتها⁽³⁾.

وذكر عن العالم الزاهد أبي محمد الدرقي (من علماء النص الثاني من القرن الرابع الهجري) أنه كان حاكماً على أهل جادو، وأنه ركب حمارته ذات يوم، فبركت، فأخذ يصفق نعليه عند أذنها. وذهب أصحابه ولم تقم، فقال بعض أصحابه: «ما أظن إلا حمارته بركت»، فرجع، فضربها، فقامت، والورع منع الشيخ من ضربها⁽⁴⁾.

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 116.

(2) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، المجلد الأول، 1301هـ/1981م، ص 154 - 155. وانظر أيضاً: حميد بن رزيق: الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله، وزير التراث القومي والثقافة، الطبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص 203.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 142.

(4) المصدر نفسه، ص 229.

إعمال المبدأ
الرحمي في معاملة
كل المخلوقات:
كان رجل من السرية
يلقي نفسه في الفلج
حتى يبتل بدنه
وثيابه ثم يمضي في
النار حتى يقطع عن
الدواب حبالها وتنجو
بنفسها من النار

وكان أحد علماء جبل نفوسة يقول: «ما علمت أني قارفت إثمًا قط إلا مرة: وجدت دابة في الظل، فأخرجتها إلى الشمس وقعدت في موضعها»⁽¹⁾. فانظر إلى أي مدى بلغ بهم التورع في معاملة الحيوان!

ويحكى الدرجيني عن بعض فقهاء المغاربة أنه غاب عن أهله ذات مرة في بعض شؤونه، وخلف ناقه له وعليها صرار، فلم ينزعوه عنها، فلما قدم وجد خيط الصرار قد أثر على غارب الناقة حتى أحدث فيها قرحاً، فاستعظم ذلك، وأظهر غضباً، وابتدر ليحل الخيط عن الناقة، والصديد يقطر على كمي جبته؛ فقال أبو محمد: وكنت أضم كمي لثلا يصيبهما الصديد، فانتهرني وقال: «تنح عني، لا بأس من ذلك»⁽²⁾.

وأخذتهم الرأفة بالحيوان أخذاً رقيقاً، فأظهروا العناية بالحيوان بأشد عناية تكون، حتى بدابة الضيف بمثل ما أظهروا العناية به بل وأكثر. قال أبو العباس [الدرجيني]: قال أبو الربيع [سليمان بن يخلف]: وجه إليّ سليمان بن موسى [الزلفيني] شيئاً، وأمرني أن أشترى به طرفاً من المأكّل وآتي بها عبد الله بن الأمير يأكلها، ففعلت وحملت من طريقي من الكلال ما يقوم بدابتي، فلما وصلت قال لأولاده: إعلفوا دابة سليمان. قلت: ما هو بحمار يعتاد العلف، قال: يعلف ولا بد، فإن علف دابة الضيف أهم من طعامه.

قال: هكذا كانت قصتي مع عبد الله بن مانوج، جئت مرة على دابة جمعت لها من الكلال ما يكفيها. قال لأولاده: اعلفوا دابة عبد الله. قلت: ما هو بحمار يعلف. قال: لا، بل يعلف، ولا بد من ذلك، فإن علف دابة الضيف يا عبد الله أهم من طعامه⁽³⁾.

وذكرت طوسة امرأة الفقيه أبي عبد الله محمد بن تامر التناوي النفاوي كيف أنه كان يتعب في قضاء حوائج الناس، وهو صائم حتى لم يعد إلى بيته في الليل إلا وقد أضناه الصوم فأجده، ومع ذلك كان لا يفطر حتى تغلف بغلته⁽⁴⁾. هكذا كان دأبه الذي دأب عليه.

(1) الشماخي، كتاب السير، ص 251.

(2) الشماخي، ص 337. وانظر: الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 288. وانظر: الدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 356.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 385. وانظر أيضاً: الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 777 - 778. والدرجيني، طبقات مشائخ المغرب، الجزء الثاني، ص 414.

(4) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 574.

لما وصلت قال
لأولاده: إعلفوا دابة
سليمان. قلت: ما
هو بحمار يعتاد
العلف، قال: يعلف
ولا بد، فإن علف
دابة الضيف أهم
من طعامه

حكايات عن إعمال مبدأ الرقة في معاملة الحيوان

منهم أبو عبد الله بن توتسيت الذي يحكى أنه وقعت إليه يمامة، فأراها منتفة الريش، فخاطبها بالقول: أحسبك تربيين الأفراخ يا مسكينة، فأومأت برأسها [بما فهم منه]: أي نعم، فقال لها: اصبري، فدخل فحمل لها قمحاً، فجعله في كفه ولزمه حتى لقطته، فمس حوصلتها، وقال لها: الحقي أفراخك، فطار⁽¹⁾.

ومنهم من امتنع عن إيذاء الحيوان بالكلية. فهذا الشيخ أبو محمد عبد الله بن زورتن الوسياني (أحد شيوخ كنومة، من الطبقة التاسعة 400 - 450هـ/ 1009 - 1058م) قال له صبي ذات يوم: إذبح لي هذا العصفور، فقال له أبو يعقوب: في آخر عمري يا ابن أخي؟ في آخر عمري؟⁽²⁾.

ومن معاملة الحيوان إلى معاملة الإنسان. فهذا أبو مهاصر نفسه، صاحب المقام الرحمي، لم تدفعه خبيثة امرأة حامل لا زوج لها من أن يرهاها يوماً أوت إلى خربة، فتبعها. فقال: تكون الغلبة، ويكون الرقاد. فوضعت حملها، وهياً إليها ما يحتاج إليه مثلها. قالت: وجدني أدبر كيف أصنع به، فسلمه الله بقول الشيخ⁽³⁾.

كان أحد أهل الصلاح من العُمانيين يرى أن قيمة الإنسان أعلى من أية قيمة، ولذلك كان يذهب إلى قبر الإمام خنبش بن محمد بن هشام الذي قيل: إنه توفي يوم السبت لعشر من جمادى الأولى في سنة عشر وخمسمائة قالوا: وجرى على الناس بموته مصيبة عظيمة قالوا: وكان رجل من أهل الصلاح ينشد عند قبره شعراً:

وليس من الرزية فقد تيس ولا شاة تموت ولا بغير
ولكن الرزية موت نفس يموت لموتها خلق كثير⁽⁴⁾

وفي معاملة العبيد، والزمن زمن عبودية مقبلة بغيضة، كانت لبعضهم سيرة زكية:

«وقيل: إن الإمام غسان ذكر يوماً العدل، وذكر حالة العبيد في الباطنة، وكانوا يزجرون لساداتهم بالليل، فقال: «عدلنا إلا في عبيد الباطنة»؛ ومعناه أنه ليس للسيد أن يستخدم عبده بالليل، وأهل الباطنة قد استخدموهم للضرورة

أبو مهاصر نفسه،
صاحب المقام
الرحمي، لم تدفعه
خبيثة امرأة حامل
لا زوج لها من أن
يرعاها، وكان أن رآها
يوماً أوت إلى خربة،
فتبعها. فقال: تكون
الغلبة، ويكون الرقاد.
فوضعت حملها،
وهياً إليها ما يحتاج
إليه مثلها. قالت:
وجدني أدبر كيف
أصنع به، فسلمه الله
بقول الشيخ

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 612.

(2) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 340.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 117.

(4) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، المجلد الأول، ص 349.

الداعية لذلك، ولكنهم يريحونهم بالنهار فوق قدر عملهم بالليل. وقد رخص لهم بعض المسلمين في ذلك، إذ أراحوهم بالنهار وكان الإمام يرى التشديد فقط»⁽¹⁾.

وقد ورد في سيرة أبي يوسف حجاج الويغوي، من علماء جبل نفوسة، أنه أرسل أمة تستسقي، فاستبطأها، فخرج في طلبها، فوجدها استراحت وأخذتها سنة، فما كان منه إلا أن جعل سراويلها تحت رأسها، وأخذ القربة، خشية أن تستوحش من فقد القربة. فلما استيقظت، وتفقدت القربة، وعرفت السراويل، قالت: «هذا فعل سيدي، رزقه الله الجنة!»⁽²⁾.

صفحات مشرقة في معاملة مهمشي المجتمع ومنبذيه

في معاملة الأسير:

قدم الإمام الوارث نموذجاً حياً عما ذكره الفيلسوف المعاصر إيمانويل لوفيناس (1906 - 1995م) من أن الغير مسؤوليتي؛ بمعنى أنني مسؤول عن الغير مسؤولية لا نفاذ لها، حتى وإن هي كلفتني حياتي. فهي مسؤولية عن الغير في عوزه وكونه كائناً ميثاً. وليست توجد الأنا، هاهنا، إلا في خدمة هذا الغير، ومن أجله، في إطار إلزام، وذلك باعتبار الأنا الوحيدة التي يمكنها أن «تجيب» عن نداء الوجه المعوز العاري، وأن تتحمل - في فرديتها وفرادتها - المسؤولية، وكأنها أول من سمع هذا النداء، والتي هي لربما كانت آخر من يملك سمعاً للإصغاء إلى استغاثة الوجه العاري وطلبه اللواذ، وآخر من يرضى سمعه إلى النداء. بهذا تصير الأخلاق بجملتها - باعتبارها صلة بالغير، ولا صلة بالغير إلا وينبغي أن تكون أخلاقية - هي المسؤولية عينها من أجل الغير في السخاء المجاني للمحبة والمودة، والرافضة للمعاملة بالمثل. ويذهب لوفيناس إلى حد تحديد الأخلاق بكونها وعي بالمسؤولية عن الغير، وما كانت هذه المسؤولية بالتعميمية - كلنا مسؤولون - وإنما هي مسؤولية تخصيصية، فلا أحد يمكن أن يسد مسدي أو أن يحل محلي. أكثر من هذا، المسؤولية هي ما يحددك، هي ما يفرّدك.

هذا الدرس في أخلاقية المسؤولية عن الغير يقدمه لنا الإمام الوارث. إذ يتحدث الإمام السالمي عن سبب موته، فيقول: «كان سبب موته أنه غرق في سيل وادي كلبوه من نزوى وغرق معه سبعون رجلاً من أصحابه، وسبب ذلك أنه حبس

(1) المصدر نفسه، المجلد الأول، 1301هـ/1981م، ص 131.

(2) الشماخي، كتاب السير، ص 140.

إنني مسؤول عن
الغير مسؤولية لا
نفاذ لها، حتى وإن
هي كلفتني حياتي،
فهي مسؤولية عن
الغير في عوزه
وكونه كائناً ميثاً.
وليست توجد الأنا،
هاهنا، إلا في خدمة
هذا الغير

المسلمين كان عند سوقهم مائل، وكان ناس محبوبين (كانوا على الأرجح أسارى)، فسأل الوادي جارفاً، فقيل للإمام: إن الوادي سيلحق المحبوسين، فأمر بإطلاقهم، فلم يجسر أحد أن يمضي إليهم خوفاً من الوادي، فقال للإمام: أنا أمضي إذ هم أمانتي وأنا المسؤول عنهم يوم القيامة، فمضى إليهم، وأتبعه ناس من أصحابه، فمر بهم الوادي فحملهم مع المحبوسين»⁽¹⁾.

ورأى الإمام الوارث قوماً كان عاقبهم في شيء، فرأهم في الشمس، وكان قد غفلهم أمين السجن، فغضب، وقال: «في الشمس، أمانتي!!!»... أو نحو هذا من كلامه⁽²⁾.

وأشبه ما يكون بهذا الدرس في أخلاقيات المسؤولية، ما ذكر عن أبي زكريا ابن أبي عبد الله بن أبي منصور التندنميرتي، فقد تولى أمر نفوسة لأمد طويل، وكان لا ينام كل ليلة حتى يميز نفوسة كلها: من يستحق الأدب والمواساة، ومن له الحق أو عليه؛ وكل ذلك مخافة التقصير وخشية العياء في الجواب يوم الحساب، إذ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»⁽³⁾. ويروى عن حس الشيخ الفقيه العُماني أحمد بن عامر بن صالح العبادي، كاتب الصكوك بنزوى، أنه كان ذات يوم ذاهباً إلى محلة سعال بنزوى، فإذا بامرأة قاصدة إليه تطلب منه كتابة صك لها، فأخذ الشيخ إلى جانب الطريق لكتابة الصك. وكان الجو شديد الحر، والعرق يتطاير منه، فقالت له المرأة: «سوف أتيك في وقت آخر، اذهب إلى مقصدك؛ فقال لها الشيخ عامر: إذا أدركك أمر فمن سيكون مسؤولاً؟ بل أكتب الآن. (رواه صاحب النمير عن والده).

ولم يقفوا عند هذا الحد من المسؤولية، بل شعروا بالمسؤولية أمام الطبيعة. فهذا الإمام محمد بن عبد الله الخليلي تحدث عن ورع الإمام سالم بن راشد الخروصي، فقال: كنا معه ذات يوم في سفر، وأنخنا في واد، وقُرّب لنا التمر، فرأينا الإمام لا يلقي النوى وإنما يجمعه في غلافة ويتركه في جانب عمامته، فقلنا له: كيف فعلت هذا؟ فقال: هذا واد وأخاف إن تركته يحمله الوادي ثم يستوي نخلاً ويحجز الوادي أو يحيله إلى جهة ثانية، ويسألني الله عن ذلك. ونحن لم نحتفل لذلك. انظر هذه القلوب المعلقة بخوف باربيها. (ذكره صاحب النمير).

(1) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، المجلد الأول، 1301هـ/1981م، ص 120.

(2) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 278.

(3) الشماخي، كتاب السير، ص 271.

عن أبي زكريا بن
أبي عبد الله بن أبي
منصور التندنميرتي،
أنه تولى أمر نفوسة
لأمد طويل، وكان لا
ينام كل ليلة حتى
يميز نفوسة كلها:
من يستحق الأدب
والمواساة، ومن له
الحق أو عليه؛ وكل
ذلك مخافة التقصير
وخشية العياء في
الجواب يوم الحساب

وما اكتفوا بذلك، بل عاملوا المذنب، في بعض الأحيان، بأرق معاملة تكون، ومن دون حكم تشهني أو حكم تعصب. فقد كان الشيخ عبد الله بن توتسيت قاعداً في داره إذ امرأة دخلت عليه وهي حامل من الزنى مشهورة في الزنى، فقالت له: يا مولاي عبد الله، أعطني شيئاً أشترى لحماً، جزت عليه عند أويغير - وهو جزار لتناوة معروف عندهم، وعنده لحم سمين، فاشتاه قلبي، فما كان من الشيخ إلا أن قام وفتح لها الصرة ودفع لها منها...⁽¹⁾.

ومن آدابهم في معاملة الغير في السلم وفي الحرب:

من آداب الحرب:

فمن آداب معاملة الغير في الحرب حيث يستحيل الإنسان المحارب، على حد عبارة الفيلسوف الفرنسي «ألان»، الذي كتب عن الحرب: أشبه شيء يكون «بقرد مسلح»، لا يعرف قيماً ولا يعترف بمبادئ، هذا الإمام العُماني سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب يراسل أحد سلاطين عُمان يوسف بن وجيه، وكان أحد أمراء الجور، في أمر محاربتة، ويذكره بالأدب التي يلتزمها في المحاربة العقدية، فيقول: «(...) وحاربناك محاربة المسلمين لأهل البغي» «حتى تضيء إلى أمر الله» لا نهاية لذلك عندنا، أو تضيء روحك أو أرواحنا، على إحياء الحق، وإماتة الباطل، إن شاء الله، ولا نستحل منك مالاً، ولا نسبي لك عيالاً، ولا نسف لك داراً، ولا نعقر لك نخلاً، ولا نعصد لك شجراً، ولا نستحل منك حراماً، ولا نجهز على جريح، ولا نقتل مولياً تائباً، ولا نقتل مستأمناً إلينا، ولا نغنم ماله، ولا ندع أحداً يتعدى عليه، في نفس، ولا مال، فإن فعل ذلك أحد بأحد، أخذنا له الحق، إذا صح معنا، ومن كان في يده مال، فهو أولى بما في يده، لأننا لا نزيل مالاً إلا بحجة...»⁽²⁾.

والبادي أن هذه الرسالة التي تحدد ضرباً من «شرعة الحرب» الأخلاقية، أو من «آداب الحرب»، بصرف النظر عن صدقيتها التاريخية، صارت بمثابة «النموذج» أو «الطراز» الذي بنيت عليه العديد من الشرعات المثلثة.

فهذا الإمام عبد الرحمن محمد بن مالك بن شاذان إلى سعيد بن راشد بن علي الذي شق عصا الطاعة:

(1) الوسياني، السير، الجزء الثاني، ص 613.

(2) نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، الجزء الأول، ص 290. سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 283 - 284.

«...» وإن قلت: إن الحق في أيدينا ولم تقبلوه منا، رداً منكم للحق وأهله، استعنا بالله عليكم، وجعلناه حكماً بيننا وبينكم، وحاربناكم محاربة المسلمين لأهل البغي، حتى تفيئوا إلى أمر الله، وتفنى أرواحنا وأرواحكم، لا غاية لذلك عندنا، على ألا نستحل لكم مالا، ولا نسبي لكم ذرية، ولا عيالاً، ولا نقتل مولياً تائباً، ولا معتذراً آيماً، ولا نستجيز فيكم إلا ما أجازته المسلمون (...)⁽¹⁾.

على أن هذه خطوة مهمة - والزمان ذاك الزمان - حيث كانت ترتكب شناعات، ولا زالت اليوم، لا يقبل بها شرع ولا عقل، وحيث كان منطلق حرب المعادين يقتضي: «الحرب لهم، وتفريقهم، وتحريقهم، وهدم حصونهم، وقطع المواد عنهم، وحبس المياه والأطعمة عنهم والحمولة، أن يصل شيء من ذلك إليهم، كان لهم أو لغيرهم، إلى أن يفيئوا إلى أمر الله إياهم...». ففي خضم كل هذا، كان يتم تذكر «آداب الحرب» و«أخلاقياتها».

وفي معاملة الغير غير الملي، ذكر أن أبا محمد عبد الله سأل أهل وارجلان عن مسألة يهودي اشترى جناناً فوق وادي أجلو، فقال لهم يونس ابن الشيخ المعز بن حبيب الهواري: خذوا عليه الشفعة، شفعة الإسلام، فسألوا أبا محمد عن ذلك، فقال: «ذروا الناس يعيشون في بلدكم»⁽²⁾.

أكثر من هذا، على الرغم من بعض الصور السلبية لليهودي ولليهود التي تبرز بين الفينة والأخرى في سيرهم، فإن بعض الصفحات المشرقة المنيرة من تاريخهم يبيدهم بوجه تسامحي عميق. ومنها هذه الصفحة حيث يسمع عالم مسلم إلى نصيحة يهودي: «ذكر أبو نوح عن الشيخ داود مصالة قال: إن يهودياً وجد أبا ذر أبان بن وسيم مغضباً على أهله، فقال له: أمثلك يا أبان لا يغضب إلا على الحق، يا أبان وطن نفسك ألا ترى من الدنيا ما يسرك. فما رأيت فيها من سرور فهو ربح، وكن فيها كرجل قدّم ماله لبلد فكان يؤمل اللحوق به. قال: فعجب أبو ذر بقوله، وجعل يكرره في مجالسه، إذا لم يبتدئ به المجلس ختم به»⁽³⁾.

في معاملة الغير غير الملي، ذكر أن أبا محمد عبد الله سأل أهل وارجلان عن مسألة يهودي اشترى جناناً فوق وادي أجلو، فقال لهم يونس ابن الشيخ المعز بن حبيب الهواري: خذوا عليه الشفعة، شفعة الإسلام، فسألوا أبا محمد عن ذلك، فقال: «ذروا الناس يعيشون في بلدكم»

(1) سيف بن حمود البطاشي: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، ص 379.

(2) الوسياني، السير، الجزء الأول، ص 454.

(3) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 717.



الفهرس

4 تقديم

10 المقدمة

41



كتاب المعرفة

79



كتاب «لا»

89



كتاب البساطة الطوعية أو كتاب الورع

101



كتاب إيثار التواضع وحب الخمول

- 109  كتاب الإحسان والإفضال
أو كتاب الجود والسخاء
- 115  كتاب الألم
- 121  كتاب المرأة
- 133  كتاب الحكم ومحاسن الكلم
- 145  كتاب آداب معاملة الغير

